لدوفيك هاليفي

عائلة كاردينال

رواية من الأدب العالمي الساخر



ترجمة

علي باشا





لدوفيك هاليفي

LUDOVIC HALEVY

كاتب فرنسي ولد في باريس عام ١٨٣٥ وتوفي فيها عام ١٩٠٨.

سطع نجمه ككاتب متحرر وناقد لعصره معتمداً على أسلوب السخرية والفكاهة التي تعتمد على إبراز المفارقات والتناقضات.

كتب العديد من المسرحيات التي عرضت على خشبة المسرح وألف العديد من الأعمال الأدبية والروائية التي تصور الطبقة الدنيا والمجتمع الباريسي الذي اتصف بالغرور والخفة والحماقة الذاتية.

انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٨٤ وكان عضواً في الكونسرفتوار الفرنسي وفي جمعية الكوميديين الفرنسيين وجمعية المؤلفين.

عائلة «كاردينال»

العنوان الأصلي للكتاب:

"La Famille Cardinal"

لمؤلفه: لدوفيك هاليفي

Ludovic Halevy

لدوفيك هاليفي

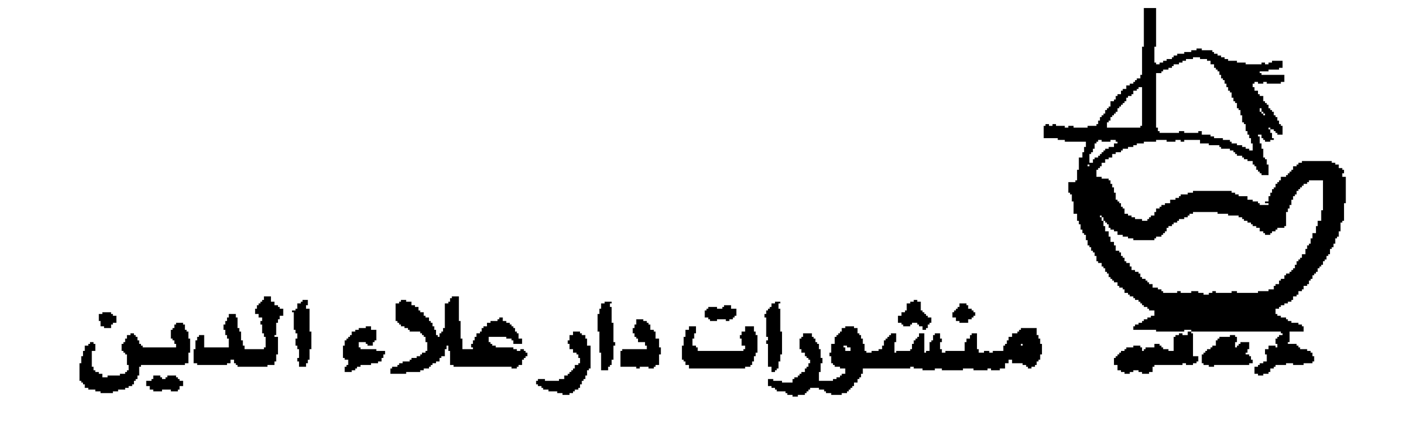
عضو المجمع العلمي الفرنسي

عائلة «كاردينال»

رواية من الأدب العالمي

(الساحر)

ترجمة علي باشا



منشورات دار علاء الدين

- عائلة «كاردينال» - رواية
- تأليف: لدوفيك هاليفي
- ترجمة: علي باشا
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٣
- عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين

- الإخراج الفني: سلام أبوكرم
- التدقيق اللغوي: صالح جادالله شقير
- الغلاف: المهندس: محمد طه
- يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١



السيدة "كاردينال"

سيدة بدينة، مهملة الهندام، على كتفها شال عتيق، ونظارة فضيّة واسعة تعلو أنفها، كانت تقف هادئة، مستندة على أحد الأعمدة، في أروقة دار الأوبرا، ومن هناك، كأنها في نشوة عذبة، كانت تثبّت على المسرح عينيها الجاحظتين اللتين تشعّان بالعطف والحنان. كانت تعرض في ذلك المساء مسرحية "فوست". وآنسات فرقة الرقص بدأن يرقصن "فالس" الاحتفال الشعبي *(La Kermesse)* حول "مرغريت"، وتدلّت أذرعتهن، بشكل ينمّ عن السأم والانقياد، وأخذن ينشدن:

فلْيطرينا "الفالس" بعيدا!

لتدوّي في السهول

أنغام أغانينا!

ولنرقص!

أكاد لا أستطيع التنفس!

آه! يا لها من متعة!

الخ.. الخ..

فاقتربت من السيدة البدينة وربّت برفق على كتفها وقلت لها:

- نهارك سعيد، يا سيدة "كاردينال" كيف حالك، هل أنت بخير؟

فأجابتني:

- لا بأس، ليست الحال سيئة، أشكرك.

- وابنتاك، ماذا عنهما؟

- الصغيرتان بخير أيضاً.

- هل ترقصان هذا المساء؟

- "بولين" ترقص، لا "فيرجيني"، ألا ترى "بولين" هناك؟ إنها ترتدي فستاناً أزرق مخططا بأبيض.

- أتدرين أنّ "بولين" أصبحت جميلة وظريفة جداً؟

- نعم، إنها ظريفة ولطيفة جداً، وستصير جميلة جداً، تماماً كما حصل لفيرجيني، التي ظلّت قبيحة حتى سن الثالثة عشرة، ثم، دفعة واحدة انتفضت وتفتّحت.

- وتفتّحت بصورة رائعة، إنها اليوم أجمل فتاة في دار الأوبرا.

أوه! كلا، إنها ليست أجمل فتاة، وأنا لا أريد أن أكون أمّاً متعصّبة ومنحازة لابنتي: "ماري فيرنو" أجمل من "فيرجيني".

- و"بولين" كم هو عمرها الآن؟

- قاربت على الخامسة عشرة.

- خمس عشرة سنة، كيف تمر الأيام بسرعة، وتكبر البنات سريعاً! يخيل لي أني مازلت أراها صغيرة جداً مع طفلات فرقة "غليوم تيل" أثناء إحدى حفلات الرقص على الجسر، في الهواء الطلق.

- نعم في الخامسة عشرة، وهي في المجموعة الرباعية الراقصة الأولى وستصبح راقصة أوبيرا رئيسية عند أول اختبار، وأنا متأكدة من ذلك.. فمنذ بضعة أيام، أمسكها السيد "بيران" عند مروره بقربها من ذقنها، والسيد "بيران" لا يمسك أي فتاة كانت، من ذقنها.

- خمس عشرة سنة، إن هذا يدهشني كثيراً.. ولا شيء حتى الآن، آمل ألا يكون قد حدث شيء، أليس الأمر كذلك، يا سيدة "كاردينال"؟

- أوه! كلا، لا شيء، لا شيء!.. آه، يا إلهي ليس لعدم وجود عروض، ومتقدمين لخطبتها، فقد طلبها مني كثيرون. وهنالك على الخصوص، السيد (ن..) الذي يأتي كل ثمانية أيام إلى المنزل، ولكن الصغيرة لا تستطيع أن تطيقه، ولذلك فإني لا أريد أن أرغمها على قبوله، فالأم، كما تعلم، لا ينبغي أن تفعل هذا.

- إنك تتمتعين بإحساس سليم وبعواطف طيبة.

أوه! أنا، فيما يتعلق بالعواطف!.. وعلاوة على ذلك فإني أسألك: لماذا العجلة؟ فالصغيرة ستصبح في العام القادم أكثر جمالاً وظرفاً مما هي عليه الآن.

- و"فيرجيني"؟ أما زال "بول"..؟

- السيد "بول"! كيف ألا تدري؟ من أين هبطت؟

- لقد وصلت لتوي من رويا، حيث أمضيت ثلاثة أشهر في مدينة "بطرسبورج".

- حقاً، لقد مضى قرن، لم يحصل لنا السرور برؤيتك.. حتى أني ذكرت ذلك أول أمس للسيد "كاردينال".. إيه! لقد حصل أمر جديد خلال هذه الأشهر الثلاثة.

لقد انقطعت العلاقة مع السيد "بول"!

- انقطعت! ما الذي حصل إذن؟

- حادث، يا إلهي! ولا شيء غير ذلك.

- حادث!.. هلاّ رويت لي خبره؟..

- بكل طيبة خاطر.. ولكن ها قد انتهى الفصل.. وهنا، يمكن أن نعيق العمال الذين يغيّرون الديكورات، تعال إلى هناك إلى تلك الزاوية في الشمال.

فتبعت السيدة "كاردينال" المحترمة، منصاعاً، وهاكم ما روته لي في تلك الزاوية الكائنة في الجهة اليسرى من الرواق.

السيد "بول" كما تعلم كان مهووساً بالحركة على الدوام.. فهو يذهب إلى هذه الجهة وإلى تلك، وعندما كان يستطيع اصطحاب "بولين" معه، كان يصطحبها، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك دائماً بسبب عملها في الأوبيرا.

وفي بداية شهر شباط (فبراير) على وجه التقريب، قال لنا، صباح ذات يوم: "أنا ذاهب لتمضية ثلاثة أيام، عند أهلي، في منطقة "البورغونيو" لإنجاز بعض الأعمال وسافر. وفي اليوم نفسه -والأقدار تعمل عملها في هذه الحياة!- أتى شاب ليزورنا، ولم يكن أتى إلى منزلنا، لا منذ أسابيع ولا حتى منذ شهور. وهذا الشاب يدعى "كروشار" ويعمل ممثلاً في مسرح عند باب "سان مارتان" فهل تعرفه؟..

أنت لا تعرفه؟.. هذا لا يدهشني، فهو لا يقوم إلا بأدوار ثانوية، ولكنه شاب يتمتع ببنية قوية وبشيء من الطاقة وبعض الملكات، ولاشك أنه سيبرز ويحقق الشهرة في يوم من الأيام.

وهكذا، فإنه أتى وقال لنا: أتريدون أن تأتوا مساء اليوم إلى مسرح "سان مارتان"؟ فأنا أقوم بدور أحد "السادة" في مسرحية "لوكريس بورجيا"، وقد جلبت لكم أربع بطاقات، ولم يكن هنالك عمل في الأوبيرا، ولا تدريبات، ولذلك وافتنا، وذهبنا إلى المسرح، حيث شاهدنا المسرحية. أجل! ولم يكن لدى "كروشار" شيئاً هاماً يقوله، ولكنه، رغم ذلك كان يجد وسيلة ليلفت إليه الأنظار، بالإلقاء، بالصوت الجميل، بالجاذبية وبالملابس الزاهية. وأنا من جهتي، فقد أعجبت به: "آه! كم هو جميل! وكم هو جيد! أمّا "فيرجيني" فلم تكن تقول شيئاً. وكان ينبغي أن أكون حذرة، ولكني كنت مغفلة في تلك الأمسية، ومع ذلك فالله يعلم! إن السذاجة ليست هي التي كانت تلجم لساني وتقطع أنفاسي.

وفي اليوم التالي عند الساعة الرابعة، كنت وحدي مع

"فيرجيني" التي كانت تنتعل خف الرقص وتتباهى به. فقرع جرس الباب، وذهبت ففتحته، كان أيضاً، هو "كروشار" فدخل، وسألنا عمّا إذا كانت قد سرتنا تلك الأمسية، فقلت له، لقد سرّتنا كثيراً، وأخذنا نتحدث، ووجدت نفسي، بعد ربع ساعة، مضطرة للخروج، فقد كان لدينا مدعوّون على العشاء، وكنّا بحاجة لسمك، فذهبت، وعندما عدت، كانت "فيرجيني" محمرة الوجه، وهكذا كان "كروشار" أيضاً، ولم أتذكر ذلك إلا فيما بعد.

وبعد اليوم التالي، عاد "بول" من بورغونيا وهذا حسن، ولكن في اللحظة نفسها التي وصل فيها إلى البيت أتى من حمل رسالة لفيرجيني، وأنا بكل غباء، أو بالأحرى ليس بكل غباء، لأنني بالحقيقة كيف يمكنني أن أتوقع أمراً كهذا؟ وهكذا، إذن، فقد دخلت ومعي الرسالة.

كان السيد "بول" جالساً على أريكة، و"فيرجيني" واقفة بقرب المدفأة، فقلت لها: هذه رسالة لك يا "فيرجيني". وأنا لا أجيد القراءة والكتابة. كنت أظن أنها إحدى رسائل الإعجاب والبوح بالحب، وكنت أعرف أن السيد "بول" يحب قراءة هذه الرسائل، ولم يكن هنالك أيّ مانع من أن يراها. لأننا كنّا قد قرّرنا رفض جميع الخاطبين، فيما عدا "بول". ولكن "فيرجيني" تناولت الرسالة، وصاحت: "آه إنها منه!"

وماذا يمكن أن نعمل؟ فقد أفلتت منها هذه الكلمات، ثم عندما رأت السيد "بول" ينهض، أرسلت صوتاً خافتاً، وبدا عليها

الانـزعاج، فسـقطت الرسـالة عـلى الأرض والـتقطها "بـول" آه! وأنـا لا ألومـه عـلى ذلك، فلو كنت محله لفعلت مثلما فعل. وبلمح البصر، قرأ الرسـالة، ثم رأيته يتناول قفـازه وقبعته بهـدوء، فقلت له وأنا منصرفة للعناية بفيرجيني التي كانت مستلقية على إحدى الأرائك، وهي باردة كالثلج: "قل لـي ، مـاذا هـنالك؟" فأجـابني: "هـنالك هـذه!" وأعـاد لـي الرسالة، وانصرف. ولابد لي من القول، إنه أرسل لفيرجيني مساء ذلك اليـوم عشـرة آلاف فـرنك. أوه! أيجـب أن نكـون منصفين: لقـد تصـرّف السيد "بول" تصرفاً لائقاً، كما يتصرّف الرجل المتحضّر.

وأنـت تـدرك جيـداً أنـي لم أهـتم بالرسـالة، كـنت مهـتمة بفيرجيني. وأخيراً فتحت عينيها: - "آه يا أمي، آه يا ماما!"

- إيه، ماذا هناك؟

- آه، يا أمي هذه الرسالة!..

- إيه، ما بها هذه الرسالة؟

- إنها من "كروشار" يا أمي!

- إيه! وماذا به "كروشار"؟

- آه! ذلك لو أنك تعلمين ماذا حصل ذلك اليوم!..

- أي يوم؟

- يوم ذهبت لشراء السمك..

- إيه! ماذا حصل يوم ذهبت لشراء السمك، ماذا حصل؟ ماذا؟

إيه، نعم يا أمي، نعم.. ماذا يمكن أن نعمل؟.. كان ما حصل كنوبة من الجنون.

وعند ذلك مباشرة، أغمي على ابنتي الغبية، من جديد. فقلت: "هيا بلا حماقات، إنها مصيبة كبيرة، ولكنّ الصحة قبل كل شيء، ولها المقام الأول. وكيف ارتكبت هذه الخطيئة، وماذا كتب لك هذا الممثل الفاشل؟..

آه! يا سيدي العزيز، لقد كتب كلاماً يثبت أنّ "فيرجيني" تلاحقه وتركض خلفه، منذ حصول تلك القصة المعيبة، ويعتذر عن عدم حضوره إلى منزلنا بعد ذلك: فهو يتدرّب طيلة النهار، ويقوم بالتمثيل في الأمسيات، وهو يخاطبها دون كلفة، وبصيغة المفرد، ويلقبها بقوله: "يا حماتي الجميلة! و"يا ملاكي المعبود!" وينتهي إلى القول بأنه سيكون بمفرده في بيته الكائن في شارع باريس، في "بيلّفيل" في اليوم التالي، عند الساعة الرابعة، فماذا يعني هذا؟ إنه كلام دنس وفظيع! أي أنه كان ينبغي أيضاً على "فيرجيني" أن تنزعج وتتحمل المشقة لكي.. وأنت تدرك ما أعني!

وناولت الرسالة "لفيرجيني"، وقلت لها: "هيا، أقرئيها لي، إن يهزأ بك، وتستحقين ما حدث لك، والنتيجة هي أن السيد "بول" قد ذهب.

- آه! الأمر سيّان لديّ بشأن "بول".

- إنها حماقات أيضاً، هذه الكلمات! هيّا، انهضي، وتمشي قليلاً في الغرفة، فأنت تبدين الآن كأنك ميّتة.. آه! أنا كان يجب أن

أوجّه لك صفعتين قويتين، لو لم تتظاهري بالإغماء، بل ربما أكثر من ذلك أيضاً، ولكني أقول مرة أخرى: "الصحة والسلامة قبل كل شيء." لقد تحسّنتِ الآن، أليس كذلك؟.. نعم.. حسن، يجب أن تكتبي في الحال للسيد "بول" وتطلبي منه الصفح والمعذرة.

- كلاّ! كلاّ! كلاّ!

ولم توافق أبداً وبدلاً من ذلك، أعتقد أنها كانت تريد أن تذهب في اليوم التالي إلى بيت صاحبها "كروشار" ولكني أنا والسيد "كاردينال" أقمنا عليها حراسة مشدّدة.. فحاولت التمرد والهرب، ولكنها لم تجنِ من ذلك سوى صفعتين في وقت متأخر من تلك الأمسية.. وكلّ ما حصل عليه ليتسلّى به "كروشار" في الساعة الرابعة، كانت رسالة مناسبة، وظريفة تليق به، تلقاها من السيد "كاردينال" وقد نسيت نصّها الكامل، ولكني أتذكّر أنها تبدأ بهذه الكلمات: "أيها السيد، إنه أب غاضب هذا الذي يرد على رسالتك، المؤرخة.. الخ، الخ.."

وأخيراً، لزم "كروشار" الهدوء، وبدا على "فيرجيني" أنها لم تفكّر به. وأثناء ذلك انقطعت عنّا أخبار السيد "بول" ولم نعلم عنه شيئاً، سوى إرساله العشرة آلاف فرنك. وربما قلت لي إن هذا يعتبر أمراً هاماً، ولذلك، فإني من وقت لآخر، كنت أتحدث إلى "فيرجيني" وأطلب منها أن تكتب إلى السيد "بول" ولكنها كانت تقول لي: "نعم، سأفعل ذلك لكي أردّ له العشرة آلاف فرنك. فلم ألحّ عليها، وخطرت لي بعد ذلك الفكرة بأن أكتب له، أنا بنفسي، فاستشرت

السيد "كاردينال" فقال لي: "هنالك جانب إيجابي وآخر سلبي في عملك هذا، ولكن، بعد التفكير ملياً في الموضوع، وتقليبه على كافة وجوهه، أرى أنّ ليس على الأم أن تتدخل في هذه الأمور.. كلا، كلا.. أنا سأكتب له! ولكن لا تخافي، فأنا لن أذكر اسم "فيرجيني". وستكون رسالتي له من رجل إلى رجل، وسأقول فيها للسيد "بول" إني آسف جداً، لانقطاع علاقتنا بسبب حادث خارج عن إرادتي.. إلخ..الخ..

وكتب له، ولكنه لم يتلقَّ أي جواب.. وانقضى شهر ونحن على هذه الحال: نجد نفسنا في وحدة، وفي عزلة تامة، وكما تعلم، لأننا معتادون على معاشرة الناس وعلى استقبالهم.. فقد صعب الأمر علينا، وخاصة بالنسبة للسيد "كاردينال" الذي كان يشكو ويتذمر، صباح مساء، ويقول لي: "لكم يبدو لي البيت كئيباً، تأملي كم نحن منعزلين لوحدنا!" وكان يذهب مساءً إلى المقهى، بدلاً من أن يبقى معنا في البيت، كما كان يفعل فيما مضى هو والسيد "بول".

وفي دار الأوبيرا، لم يعرف أحد شيئاً عن قضية "كروشار" ولكنهم لاحظوا أنّ السيد "بول" قد انقطع عن مرافقتنا، ولذلك أخذ بعض أولئك السادة يحومون حول "فيرجيني" والذي كان يلحّ بذلك أكثر من غيره، هو المركيز "كفالكانتي" هل تعرفه؟.. إنه يعرفك، وكثيراً ما حدثني عنك بأفضل الكلمات والتعابير.

ولم تكن "فيرجيني" تجيب بشيء، لا على المركيز ولا على الآخرين. وظل الحزن يلازمها، فنحُل جسمها وأخذت تضعف وتذوي،

وفقدت قواها، فلم تعد تستطيع البقاء حتى ولا نصف دقيقة على رؤوس أصابع رجليها، عند التدريب في الصباح، وربما كنت تعرف شيئاً عن قوة أصابع رجليها، أي أني أعتقد أنها كانت تستطيع العيش واقفة على تلك الأصابع. وكنت أقول لها: "لا ينبغي يا بنيّتي، أن تهملي نفسك، يجب أن تعيدي تنظيم حياتك".

- أوه! يا أمي، إنهم جميعاً يثيرون السأم في نفسي!

وأخيراً تلقّت، ذات يوم رسالة من المركيز، وناولتني إياها: "خذي واقرئي يا أمي." كانت الرسالة جميلة جداً، بل كانت رائعة، وسترى عما قليل لماذا أقول هذا عنها.

فقلت لفيرجيني: "إنّ هذا بالطبع، رجل يتقن العيش في هذه الحياة، ولكن هل تحبينه؟

- أوه! يا أمي، أنا أحبه؟ وكيف تريدين مني أن أحبه؟ وكل ما هنالك إن كان هو أو أيّ شخص آخر، فالأمر سيّان تماماً بالنسبة لي، وعلاوة على ذلك فلأني يجب أن أتزوج أحدهم، فإني أفضّل الزواج بشخص لا أحبه، لأن الزواج بمن أحب سيسبب لي ألماً وعذاباً.

وأخذت تبكي، والدموع تنهمر غزيرة من عينيها. أيمكن أن تصدق هذا يا سيدي؟ إنها مازلت تفكر "بكروشار"!

وقلت لها: "هيّا يا ملاكي، تشجعي واعتني بنفسك، فلا شيء يدعونا للعجلة، ولندع المركيز جانباً.

- كلا، كلا، يا أمي، إني سأكتب له، إنه قبيح وسخيف، وهذا هو الذي أريده!

وعلى الفور كتبت له وأعطتني الرسالة، لكي أرسلها له. ولكني بالحقيقة كنت مرتبكة، وكما أفعل عادة في المناسبات الهامة، قمت باستشارة السيد "كاردينال" فقال لي: "ليس من المناسب أن تكتب "فيرجيني" لهذا السيد الذي لا تعرفه، كلا، إنّ هذا لن يكون لائقاً.. أنا سأكتب له"

وأخذ يكتب، وكان يتوقف عن الكتابة، من وقت لآخر، ويقول لي: "ليس من السهل كتابة هذه الرسالة، يا سيدة كاردينال، ولكني مع ذلك سأكتبها". وقد كتبها فعلاً وكانت جيدة جداً.

آه! ذلك لان السيد "كاردينال" يتصرّف بفطنة وحسٍّ سليم في المناسبات الحرجة. فهو لم يذكر "فيرجيني" أبداً، ويعتبر الأمور كما قلت لك سابقاً، بين رجل ورجل..

وفي اليوم التالي حضر المركيز. وبرودة الجليد من الصعب إزالتها في أول مقابلة، ولكنّ المركيز بدا ماهراً جداً ومتميزاً، ولديه طريقة ملتوية وغير مباشرة في إدارة دفة الحديث. ومما قاله: "حسن جداً، كيف سنرتّب إقامة أسرتنا الصغيرة؟"

فأجبته أنا: "ولكن، ما هي مشاريعك يا سعادة المركيز؟"

عند ذلك أخذ يروي لنا مشاريعه: بشاعات، بشاعات حقيقية! تصور أنه يريد أن يخصّص لنا راتباً زهيداً لنفقاتنا، أنا والسيد "كاردينال"، ويذهب هو و"فيرجيني" للإقامة في منزله الكائن في جادّة "الملكة هورتانس".

"آه! يا للعجب، عند ذلك كان يجب رؤية السيد "كاردينال"!
كان رائعاً أنها كرامة رب الأسرة، وماذا هنالك أهم من ذلك؟"

وقال له: "السيد المركيز اسمع جيداً ما سأقوله لك: لا شيء يمكنه أن يفرّق بيننا وبين "فيرجيني" وبدلاً من أن ندعها تخرج من هنا لوحدها، نكون على استعداد، أنا والسيدة كاردينال إلى الاكتفاء طيلة بقية حياتنا، بأبسط معيشة اعتيادية: الحساء ولحم البقر، دون أي شيء آخر، حتى ولا حبة ملح فوق ذلك..

وعلاوة على ذلك، فماذا تريد "فيرجيني"؟ كل ما تريده هو أن تعيش بين ذويها، فهي فتاة عاقلة لا تفكر بالظهور والعظمة.."

وقد اندفع في حديثه، وكان يمكن أن يستمر فيه زمناً طويلاً، ولكن "فيرجيني" قاطعته، قائلة للمركيز:

"أبي محق فيما قاله، فنحن معتادون على العيش سوية، يا سيدي، ولا ينبغي أن تحاول التفريق بيننا"

- ولكني سأفعل كل ما تريدين يا آنستي العزيزة، كل ما تريدين، لأنّ حبي..

"وكان هذا أكثر مما يستطيع أن يتحمله السيد "كاردينال"!

فنهض وقد شحب وجهه من شدة الغضب:

"لا أقبل أن تقال أمور كهذه في حضوري، أيها السيد المركيز، فهذه أمور لا تعنيني!".

فأجابه المركيز:

- ولكن لابد لي من التفاهم مع الآنسة، ابنتك!"

- لا أدري ماذا تعني بما قلته، ولا ينبغي عليّ أن أعرف ذلك، وقبل كل شيء، فأنا لديّ موعد في الساعة الرابعة، وهنالك من ينتظرني وأنا ذاهب، ولكني أذهب وكلي أمل، بألاّ أقول لك: "وداعاً!" بل: "إلى اللقاء!"

- وهذا ما أرغبه تماماً يا سيد "كاردينال".

- إلى اللقاء أيها السيد المركيز.

وخرج السيد كاردينال وكما رأينا، فإن كرامته لم تمسّ أبداً.

وحالما ذهب السيد "كاردينال" تفاهمنا بسرعة، أنا والمركيز. أما "فيرجيني" فلم تعترض على شيء، ولم تحرك ساكناً ليس أكثر مما لو كان الأمر يتعلق باكتشاف أمريكا، وكل هذا كان سيان لديها، كأي شيء آخر، ولحسن الحظ لم يكن لهذا أية أهمية، لأننا لم نكن بحاجة لها آنذاك.

وهكذا فقد تم الاتفاق بيني وبين المركيز على استئجار شقة كبيرة، يمكن أن نقيم فيها جميعنا، وقد اقترح المركيز في بداية الأمر، أن يأخذنا كلنا لنقيم في منزله، ولكني أجبته بأنّ السيد "كاردينال" لا يمكن أن يوافق أبداً على ذلك، وبهذه المناسبة، حدّثته عن طباع السيد "كاردينال" وقلت له إنه رجل يتمسك قبل كل شيء

بالشرف، بالاحترام، بالاعتبار والتقدير، ولذلك ينبغي إنقاذ المظاهر والمحافظة عليها بأيّ ثمن، ومن أجل ذلك يجب أن يكون للشقّة بابان، بل ودرجان أيضاً، لكي لا تحدث أبداً لقاءات مزعجة في أوقات غير مناسبة.

وقد تفهّم المركيز كل ذلك جيداً، ومنذ اليوم التالي قام بحملة للبحث عن الشقة المناسبة. وعند الظهر كان قد وجدها، وهي تقع في حي "بيغال" ***(Pigalle)*** ونحن نقيم هناك الآن.

السيد "كاردينال" يحب الأحياء القديمة.

نحن مرتاحون وعلى ما يرام، في إقامتنا هناك، ويمكنك أن تأتي لزيارتنا وترانا. في الوسط، صالون فسيح وقاعة طعام، وفي الجانب الأيمن غرف نومنا: السيد "كاردينال"، أنا و"بولين" وفي الجانب الأيسر غرف نوم "فيرجيني" وغرفة نوم المركيز. بابان ودرجان. وقد ألحّ المركيز كثيراً لكي نأخذ الجهة التي يؤدي إليها الدرج الكبير، أنا والسيد "كاردينال" ولكنّ زوجي بحسّه السليم وبذوقه اللذين يتحلّى بهما على الدوام، رفض ذلك بشكل قاطع واختصينا أنفسنا بدرج الخدمة والخدم.

وأنت هكذا ترى أنّ كل شيء قد رُتّب بشكل جيد، ومع ذلك، يا سيدي العزيز، فلسنا سعداء جداً كما قد يتبادر إلى ذهنك، وكثيراً ما تمر بي لحظات أتذكر فيها "بول" وأشعر بالأسف لذهابه.. آه! ذلك لأنه يحبني كثيراً، السيد "بول" كان يصطحبني إلى المسرح، وفي الأمسيات نفسها، كان يحجز مقعداً في الصف الأمامي للسيد

"كاردينال" الذي، كما تعلم لا يمكن أن يقبل بالظهور في إحدى شرفات المسرح مع.. وكل هذا قد تغير تماماً بعد مجيء المركيز الذي يحاول دائماً أن يفرّق بيني وبين "فيرجيني"..

وليس هذا هو كل شيء. فالمركيز والسيد "كاردينال" ليس لديهما الأفكار نفسها، وهما لا يتفقان على شيء، لا على الآداب، ولا على السياسة، ولا على التعصب الديني، وباختصار لا يتفقان على أي شيء، وهذا يؤدي كل يوم إلى حدوث مشاحنات بينهما. (كفالكانتي يكتب على بطاقته: حاجب فخري لـ.. لـ.. الخلاصة، لأمير صغير أصبح منبوذاً بعد معركة "سولفرينو" *(Solferino)*[1] فهو ضد التقدم، يؤيد النبلاء والكهنة، ولذلك، فكما ترى، ليس لديه أية فرصة للتفاهم مع السيد "كاردينال" وهو جمهوري، لا يحب الملوك ولا اليسوعيين، وهذا ما يسبب المشاحنات، التي يكون بعضها، في معظم الأحيان، مخيفاً جداً.

وإليك على سبيل المثال، قضية عشائنا ليلة الجمعة العظيمة، جمعة الآلام، وقد مرّ عليها ما يقرب من أسبوعين:

لقد حصلت مأساة بتلك المناسبة، مأساة حقيقية! في البداية، لابدّ من أن أقول لك، أن السيد "كاردينال" قال في اليوم السابق، يوم الخميس المقدس، لكي يغيظ المركيز:

---

(١) "solferino": إحدى معارك الحملة الإيطالية التي قادها نابليون الثالث. وحصلت بتاريخ (٢٤ حزيران "يونيو" سنة ١٨٥٩. وبمشاركة جيش مقاطعة "البيمونت" انتصر فيها على جيش "فرانسوا جوزيف" النمساوي في "سولفرينو" الواقعة في مقاطعة "لومبارديا". وكان الطابع الرامي لهذه المعركة من أهم العوامل التي أدت إلى تأسيس منظمة "الصليب الأحمر" (المترجم).

"أظنّ يا سيدة كاردينال، أنك ستعيدين لنا غداً فخذة خروف شهية لنأكلها".

وعند ذلك، قال لي المركيز: "أنت تعلمين، يا سيدة كاردينال أني أصوم غداً". وهذا كل ما قاله ولكنّ السيد كاردينال الذي يريد أن تكون له الكلمة الأخيرة، على الدوم، ردّ بقوله:

- وأنا، سآكل، غداً يوم الجمعة العظيمة "فخذه" شهية!

فلم يرد المركيز بأي شيء، وتوقفت المشكلة عند هذا الحدّ. ولكنّ السيد كاردينال، كان يحتدم غيظاً، وحاول أن يثير المشاحنات، فهو يحب دائماً أن تكون له الكلمة الأخيرة. ولكنه يحب أيضاً أن ينازعه أحد ما ويناقشه فيها، وإلاّ فكيف يمكنه أن يثبت جدارته وقدرته؟ وفي اليوم التالي كان موعد العشاء المشهور: نصفه لحوم ودسم، والنصف الآخر، للصائم، لا لحم فيه ولا دسم: فخذة الخروف من جهة، وسمكة كبيرة في الجهة الأخرى، ولا يمكن أن يمرّ ذلك بهدوء وسلام، وممّا زاد الأمر حرجاً، أنّ "ألفونس" ارتكب غلطة عند جلوسنا إلى المائدة. وألفونس هو خادمنا، فنحن لدينا الآن خادم ذكر، وإليك الغلطة التي ارتكبها:

المركيز مشترك بصحيفة "جريدة فرنسا" والسيد "كاردينال" مشترك بصحيفة "المارسييز". فأخطأ ألفونس وناول "جريدة فرنسا" للسيد كاردينال، وأعطى المركيز صحيفة "المارسييز". فقال السيد كاردينال عند ذلك:

"إليك أيها السيد المركيز جريدتك السافلة!"

فأجابه المركيز مبتسماً:

إليك أيها السيد "كاردينال" صحيفتك الظريفة!"

الظريفة!.. كان يقصد بذلك السخرية كما تعلم، ولا شيء كالسخرية يثير غضب السيد كاردينال، فهو كثيراً ما يقول عنها إنها سلاح الإيطاليين، وأنّ لهم طريقتهم الخاصة باستخدام هذا السلاح.

وران الصمت برهة بعد أن تبادلا الصحيفتين، ثم احتدم الحديث والنقاش، ومن موضوع إلى آخر انتهى بهما الأمر إلى التحدث عن المجمع الديني الكهنوتي، وهنا، التهب السيد "كاردينال" كما يلتهب البارود، وصاح بأعلى صوته أنها لشائنة ومعيبة جداً كل تلك الألاعيب والحيل التي يقوم بها اليسوعيون، وأن روما تخص الإيطاليين وأنّ ليس لفرنسا أية علاقة بها، وليسقط البابا وليسقط اليسوعيون، ولتحيا الوحدة الإيطالية.. الخ..الخ.. وباختصار فقد كان ذلك خطاباً طويلاً، انتهى بهذه العبارة: "جميع الكهنة هم من السوقة الأوباش"!

كان المركيز يتابع أكل سمكته دون أن ينبس ببنت شفة.. وكان في هذا شيء من السخرية أيضاً، هذا الصمت المتعمد!.. وأنا التي أشاطر السيد "كاردينال" بالطبع، جميع آراءه التحررية والسياسية، وبقية آرائه الأخرى، رأيت من واجبي كزوجة عند ذلك أن أؤيده وقلت:

"السيد كاردينال مصيب فيما قاله: فجميع الكهنة من السوقة الأوباش"!

وهنا نفذ صبر المركيز، فنهض وقال:

أيها السيد "كاردينال"، وأنت أيضاً أيتها السيدة "كاردينال" أكون ممتناً منكما إذا لم تتلفظا بمثل هذا الكلام، وبخاصة في يوم مقدس كهذا اليوم.

فردّ السيد "كاردينال" قائلاً:

- لا شيء يمنعني من التعبير عن أفكاري، وأنا أردّد ذلك وأصرّ عليه:

"إنهم سوقة وأوباش"

- يا سيد "كاردينال، إني أمنعك من المسّ بدياناتي، فأنا كاثوليكي، وفي أسرتي أسقفان، أتسمع إني أمنعك من أن تفعل ذلك..

آه! يا للعجب؟ ما هذا. لقد أثار غضبي:

"أتجروء على القول: "إني أمنعك" للسيد "كاردينال" وأنت في بيته، وتجلس إلى مائدته؟!.. هذا كثير، وأكثر مما ينبغي!.. هاك، إنك تثير شفقتنا، أنت وديانتك! ليكن لديك أخلاق، قبل أن يكون لديك ديانة"

- أخلاق؟ ماذا تعنين بذلك يا سيدة "كاردينال"؟

- إن ما أعنيه بسيط جداً، إيه وكيف؟

ها هو رجل متزوج، لديه زوجة وثلاثة أولاد، وقد تركهم كلهم

يعيشون حياة البؤس في إيطاليا، وأتى ليعيش في باريس مع إحدى الراقصات! ثم سمعوه وهو يتحدث عن مشاعره الدينية! كلا، الحقيقة أن هذا يقضي على شهيتي للطعام.

- لقد تماديت كثيراً، يا سيدة "كاردينال" نعم أنا متزوج، ولكني قلت لك مائة مرة إنّ المركيزة قد ارتكبت بعض الأخطاء، ولو لم ترتكب المركيزة هذه الأخطاء لما كنت هنا أنا الآن.

- إيه، حسن، وهل هذا الذي تقوله.كلام مهذّب ولطيف بالنسبة لفيرجيني؟ أتسمعين يا فيرجيني؟ إنه يقول أن المركيزة ارتكبت بعض الأخطاء وأنها لو لم ترتكب هذه الأخطاء لما كان هنا الآن.. إنه يشتمك ويوجه لك إهانة بهذا الكلام!.

- أنا لم أشتم ابنتك، أنت الذي فعلت ذلك أيتها العجوز المجنونة!.

فنهض السيد "كاردينال" وصاح به:

- إني أمنعك من أن تقول لزوجتي أنها "عجوز مجنونة".

- عجوز خبيثة، إذا كنت تفضّل هذا.

- لقد تماديت، لا تزد شيئاً على هذا.

- يلقّبني بالعجوز الخبيثة، أنا التي أعطيته ابنتي!

- ابنتك؟! إنها تزوجتني بدافع الحب!

- بدافع الحب؟ ابنتي "فيرجيني" تتزوج رجلاً مثلك بدافع الحب؟

لا أظنّ أنك تؤمن بذلك، وتقوله جاداً! ذلك لأنها قبل اليوم الذي تقرر فيه هذا الزواج، كانت قد استشارتني، فهي لا تفعل شيئاً دون أن تستشيرني بشأنه، كلا، باستثناء مشكلتها مع "كروشار" لم يسبق لها أن فعلت شيئاً دون أن تستشير أمها! وأنا التي قلت لها:

"تزوّجي المركيز، فهو وإن لم يكن سوى مركيز إيطالي، ولكنه يظلّ مركيزاً على أية حال. وقد أجابتني آنذاك "فيرجيني": "ليس هذا هو الذي يجعلني أقبل بهذا الزواج، يا أمي إنّ ما يجعلني أقبل به هو أني متأكدة أن هذا الرجل لا يمكن، على الأقل أن أحبّه أبداً، ولذلك فإنه إذا هجرني ذات يوم، فسأشعر بالسرور، بدلاً من أن أحزن على فراقه لو كنت أحبه.

فصاح المركيز عند ذلك:

- هل قلت هذا يا "فيرجيني"؟

- ليس هذا تماماً، أمي ترتب الأمور قليلاً.

- كلا أنا لا أرتب شيئاً، وأقول هذا أمام الله الذي يسمعني، أنا لا أرتب شيئاً.

فصاح المركيز:

- لا تجدّفي يا سيدة "كاردينال"

- قبل كل شيء أقول لك أني أجدّف إذا كان يحلو لي ذلك أيها العجوز الإيطالي البائس.

عند ذلك غضب المركيز ونعتني باللئيمة.

فنهض السيد "كاردينال" وبدا وكأنه يهمّ بأن يقذف إبريقاً زجاجياً على رأس المركيز، فهربت "بولين" وهي تبكي، وصاحت "فيرجيني" وهي كالمغمى عليها: "أبي! أمي! إيدوار!" (إيدوار هو اسم المركيز) ثم أخذت تبكي والدموع تنهمر من عينيها، وهي تقول: "آه! إني أعتقد تماماً أنه ينبغي أن نفترق!"

وأؤكد لك تماماً أنها كانت "هرجة" ظريفة، ولحسن الحظ، وصلت عند ذلك السيدة "بيرسون" خياطتنا، وهي تأتي عادة لتلعب الورق معنا. فحاول كل منّا أن يحتفظ بهدوئه، وذهب المركيز، وبعد أن خرج، حاولنا أنا والسيد "كاردينال" أن نتحدث بلطف مع السيدة "بيرسون" ولكنها لاحظت أنه قد حصل شيء ما، ولأنها امرأة ذكية وتتمتع بحسّ سليم، فقد تركتنا وانصرفت بعد ربع ساعة.

و"فيرجيني" التي كانت مستاءة، تناولت صحيفة وأخذت تقرأ، عند ذلك أخذني السيد "كاردينال" إلى جانب، وقال لي:

- "هل سمعت كلمة "فيرجيني"؟

- أية كلمة؟

- ينبغي أن نفترق.

- نعم، وماذا يعني ذلك؟

- ذلك يعني أنها تقصدنا بما قالته.

- تقصدنا نحن؟ هل فقدت عقلك؟ إنها تقصد المركيز، "فيرجيني" تتنكر لأبيها، تتنكّر لأمها! دعك من ذلك يا سيد "كاردينال"! وعلاوة على هذا سوف ترى..

- عزيزتي؟!

- ماذا، يا أمي؟

- أتدرين ماذا يقول أبوك؟ إنه يقول إنك قلت بأنك ترغبين بمفارقتنا!

- أنا، قلت هذا؟

- نعم، لقد قلت إنه ينبغي علينا أن نفترق!

- أوه! بابا، أوه! ماما، أيمكن أن تصدقا ذلك؟ إني كنت أفكر بإدوار، عندما قلت هذا. وهل يمكن أن أتردد في الاختيار بينكم وبينه؟ ولكن بالمناسبة، فقد وجهتما له كثيراً من الكلام القاسي، هذا المساء، بالحقيقة. أتركاه وشأنه قليلاً، فيما يتعلق بالسياسة وبالديانة.

فأجابها والدها:

- ذلك لأن السياسة والديانة هما كل شيء.

- ومع ذلك يمكن التحدث عن أمور أخرى.

- نعم، ولكن عند ذلك يصبح الحديث مبتذلاً، فارغاً وليس له أي معنى.

- آه، حسناً يا أبي، ولكن أرجو أن يكون لديك قليل من الصبر.

- سيكون لديّ منه الكثير يا بنيّتي، سيكون لديّ الكثير، وعلينا أن نتصالح الآن.

فنادينا "بولين" وتبادلنا جميعنا القُبل والعناق، فتأثرت كثيراً وترقرقت الدموع في عيني. وبعد ذلك أخذنا نلعب الورق، بكل بهجة وسرور نحن الأربعة، وعند منتصف الليل عاد المركيز، وحيّاني، فرددت له التحية، وقد حصل ذلك حسب الأصول وبصورة مناسبة، ثم ذهبت أنا والسيد "كاردينال" إلى غرفتنا.. واستلقيت على السرير ثم استغرقت في النوم، ولكن عند طلوع الفجر: "توك، توك" باب غرفتنا يُقرع:

- من هناك؟

- أنا المركيز، انهضي حالاً!

فارتديت بسرعة فستاني وخرجت، كان المركيز يقف عند الباب، بملابس النوم. فسألته:

أمريضة "فيرجيني"؟

- أوه! إنها تشكو من بعض الألم وحسب.

- لابدّ أن مشاحنات الأمس قد خضّت لها دمها، سأحضر لها مغطساً لرجليها.

- نعم، "مغطساً" لرجليها، هذا هو ما تطلبه.

ذهبت مسرعة إلى المطبخ، أشعلت النار وأخذت أنفخ. وكان المركيز يأتي من وقت لآخر ليرى إذا كان الماء بدأ بالغليان. وأخيراً، أخذ الماء يغلي، فسكبته في سطل وحملته، مارة بقاعة الطعام وبالصالون، وقرعت باب الغرفة: "هو ذا أنا، افتحي، لقد جلبت لك مغطساً لرجليك".

- حسن، أعطني إياه.

- وكيف أعطيك إياه؟!

- نعم، وأنا سأعمله لها.

- كيف؟ أتريد أنت أن تعمل مغطساً لرجلي ابنتي عندما أكون أنا هنا؟

- قلت لك إننا لسنا بحاجة لك، اتركي هذا!

- هيهات، لن أتركه أبداً!

وها هو يمسك بسطل الماء، ولكني قاومته وبقيت ممسكة بالسطل، فأخذ يشدّ ويجذبه إلى جهته، وأنا أجذبه إلى جهتي، فانسكب نصف الماء الذي يغلي على ساقيه، فأرسل صراخاً حاداً وترك السطل.

عند ذلك، أسرعت بالدخول إلى غرفة حبيبتي "فيرجيني" "خذي، يا ملاكي، مغطس رجليك"

وقلت للمركيز وأنا أحدّق جيداً في عينيه:

"حاول قليلاً، أيها القرد الشرير، أن تنتزع أماً من بين ذراعي ابنتها. أنت تتخلّى عن أولادك وتهملهم، ولكني أنا لا أهمل ابنتي، ولا أتخلّى عنها".

❖ ❖ ❖

وفي تلك اللحظة، توقفت السيدة "كاردينال" عن الكلام، واندفعت مسرعة على المسرح، ثم عادت في الحال، وهي تمسك "بولين" من أذنها:

آه! أيتها المخلوقة الصغيرة!

- ولكن، يا ماما..

- أقول لك أن السيد "دوغلاّراند" قبّلك للتو، وراء ذلك العمود.

- يا ماما، أقول لك: كلا.

- وأنا أقول لك، بلى.

ومع هذه العبارة أضافت السيدة "كاردينال" صنعةً.

فأسرع المشرف على الرقص، وهو يصيح:

"عقوبة لك، يا آنسة "بولين" عقوبة!

- عقوبة لي أنا، يا سيد "بلوك" لأنّ أمي صفعتني؟!

- أنا لا أستطيع أن أفرض عقوبة على السيدة أمك، فهي لا

تتقاضى مرتّباً من المسرح، ولذلك فإني أضاعف لك العقوبة يا آنسة "بولين".

فسألته السيدة "كاردينال":

- ولأي سبب؟

- بسبب وجودك في كواليس المسرح، يا سيدة "كاردينال" فلا يجوز أن تحضر الأمهات إلى كواليس المسرح، فالنظام يمنع ذلك.

- إنه أخلاقي جداً. نظامكم هذا، فقد وضع لكي يمنع الأمهات من السهر على بناتهنّ.

- هذا لا أعرف عنه شيئاً، وكل ما أعرفه هو أنّ ابنتك سيحسم من مرتّبها ستة فرنكات، آخر الشهر.

فردّت عليه السيدة "كاردينال" قائلة:

- سندفعها "فرنكاتك" الستة فهذا حسن، ونحن فوق مستوى "فرنكاتك" هذه، ولو لم يكن لدينا من يدفعها، لقلنا إنّ الله إذن قد تخلّى عنّا! هيا تعالي يا "بولين".

وبعد أن ودّعتني متمنية لي ليلة سعيدة، قالت لي السيدة "كاردينال":

"آه! يا سيدي، ابنتان تعملان كراقصتين في دار الأوبيرا، إنه همّ مقيم، بالنسبة لأمهما!"

أيار (مايو) سنة ١٨٧٠.



السيد "كاردينال"

البارحة الساعة التاسعة مساءً، كنت أسير في أحد الأروقة الستين التي تلتقي وتفترق وتتشابك في متاهة مباني دار الأوبيرا. كان المشرف على الرقص يسير أمامي حاملاً بيده جرساً، يدقه بكل قوة ذراعه، ويصيح بصوت فاتر ومنغمّ:

"إلى المسرح، أيتها السيدات إلى المسرح، لقد بدأ الفصل الثاني".

ومن شرفة الممثلين رأيت نحو خمس عشرة شابة، يخرجن وهنّ يثرثرن، يضحكن ويتدافعن، ثم ينزلن مسرعات كالشلال، بل كالجرف الثلجي. فالتصقت بالجدار، وتلقيت ما يقرب من خمس عشرة تحية، وبعض عبارات الترحيب والاستغراب: "بون جور، أنت هنا؟ أنت، ماذا تفعل هنا؟ أهلاً بك!"

وتركت هذا "الإعصار" الظريف يمر بكل احترام، مشكلاً عالماً صغيراً من الفتيات الأنيقات النشيطات المكشوفات العنق والكتفين، واللابسات الحرير والساتان، وهنّ ينزلن بخفة ورشاقة على الدرج.

ماذا أتيت أفعل؟ هذا ما كنت أعرفه جيداً: كنت أبحث عن صديقتي المحترمة السيدة "كاردينال" كان باب الشرفة لا يزال مفتوحاً، ألقيت نظرة: كانت مساعدات الممثلات على اللبس تعلق على علاقات تثبّت على الجدار بعض الفساتين الوسخة والتنانير المصنوعة من الفلانيلّة الحمراء: كانت تلك هي الشرانق التي تخرج منها هذه الفراشات وهي تطير متلألئة في رقصة "باليه دون جوان"، كان هنالك ثلاث أو أربع أمهات، جالسات على كراسٍ من القشّ، وقد أخذن يتحدّثن، ويطرّزن، بينما كان النعاس يداعب عيونهن.

وفي إحدى الزوايا، لمحتُ السيدة "كاردينال" كانت خصلتان مفتولتان من الشعر الأبيض تشكلان سياجاً حول وجهها المشرق والمستدير، إنها تقرأ جريدة وقد وضعت على أنفها نظارة، وعلى ركبتيها وضعت علبة النشوق.

اقتربت منها، فلم ترني لأنها كانت منصرفة بكلّيتها إلى ما تقرأ. تهاويت على كرسي صغير كان بالقرب منها، وبسرعة همست في أذنها هذه العبارة البسيطة:

- ستروين لي قصة السيد "كاردينال" يا سيدة "كاردينال".

- ولكنّ السيد "كاردينال" ليس له قصة!

- إنّ له قصة، وقصته هامة جداً: لقد كان قاضي صلح في عهد "كومونة باريس": ***(La.Commune)***[1] وقد أُلقي عليه القبض وسُجن..

---

[1] (La.Commune): (كومونة باريس): لجنة ثورية حلت محل بلدية باريس في الثورة الفرنسية سنة (١٨٧٩) ثم استولت على السلطة. والمقصود هنا ليس هذه، بل حكومة باريس الثورية عام (١٨٧١) (المترجم).

- أخفض صوتك.. أخفضه.. لا أحد في دار الأوبيرا يعرف شيئاً عن ذلك..

- سأخفضه بقدر ما تريدين، ولكني أريد جميع التفاصيل.. وكل ما يتعلق بكم يهمني كثيراً.. أمّا تكتّمي!..

- أعرف تماماً أنك متكتّم جداً!.. وأريد أن أروي لك كل شيء.. ولكن قرّب كرسيّك قليلاً.

قرّبتُ كرسيّ. فبدأت السيدة "كاردينال" حديثها:

"إني مضطرة لتناول الأمور من بدايتها البعيدة، لأنّ هناك في الحياة كما تعلم، تسلسل ظروف، وترابط بعضها بالبعض الآخر.. ولذلك يجب عليّ أن أبدأ بيوم الرابع من أيلول "سبتمبر".. آه! ويا له من يوم بالنسبة لنا، يا سيدي العزيز! الثورة أولاً!.. ولابدّ أنك تظنّ أنّ السيد "كاردينال" لم يكن غريباً عنها. لقد كان في مقر وزارة الخارجية *(Auu quai al'orsay)* أمام الهيئة التشريعية، في الصف الأول، بالقرب من الحاجز المشبك.. ولم يرجع إلى البيت إلاّ عند الساعة السادسة، وهو منهك لكثرة ما هتف وصاح بأعلى صوته: "فلتعش، فالتحيا الجمهورية!.." وجلب معه لحماً وزجاجة كبيرة من نبيذ "برغونيا" الجيّد، وقال لي:

"سنتناول عشاءً شهياً، يا سيدة كاردينال."

ولكن في اللحظة التي كنّا نهمّ فيها بالجلوس إلى المائدة، السيد "كاردينال"، "بولين" وأنا، وصلت "فيرجيني" هي والمركيز،

الذي أخبرنا أنه سيسافر في اليوم التالي هو و"فيرجيني" إلى إيطاليا، وأنه لا يريد أن يبقى أربعة وعشرين ساعة في مدينة أعلن فيها الرعاع قيام الحكم الجمهوري.. وعندما سمع السيد "كاردينال" هذه الكلمات، نهض وصاح: "لقد كنت أنا في عداد هؤلاء الرعاع الذين أعلنوا الجمهورية!"

ثم انقضّ على المركيز، أمسك بتلابيبه، وأخذ يهزه بقوة ويؤنّبه، ولقينا صعوبة كبيرة أنا وابنتاي في انتزاع المركيز من أيدي السيد "كاردينال".

ولحسن الحظ، فقد سوّت "فيرجيني" الأمر، بفطنتها وحسّها السليم، وشرحت لوالدها أن السبب الحقيقي لسفرهما هو أنّ دار الأوبيرا ستغلق أبوابها أثناء حصار باريس، وأنها لا تريد أن تنقطع عن الرقص، وأنه قد عرض عليها عقد لكي ترقص في "ميلانو"، الخ.. الخ..

عند ذلك هدأت ثورة السيد "كاردينال" وقال: "إني أنحني أمام رغبتك، إذا كان الأمر يتعلق بالفن، وبمستقبلك يا "فيرجيني".

وسحب المركيز كلامه الذي قاله بحق الرعاع والجمهورية، وافترقا، هو والسيد "كاردينال" بصورة مناسبة وهما على ما يرام.

وأثناء الحصار، كان مع السيد "كاردينال" طيلة الوقت، رجلان: كان أحدهما الوطني الذي يؤيّد الهجوم الشامل، النار اليونانية، وتحويل باريس إلى رماد.. ولكن، أجل!.. أريد أن أقول لك كل شيء..

وكان الثاني هو الملاك..

أمّا "فيرجيني" فيالها من ملاك!..

إذ إنها قبل أن تسافر مع المركيز إلى إيطاليا، طلبت منه أن يؤمّن لنا أنا والسيد "كاردينال" وضعاً مريحاً ومشرّفاً.. ولابدّ أنك تدرك أن كل ذلك قد سوّي معي مباشرة، دون أن يتحمل السيد "كاردينال" أي عبء، أو أن تمس كرامته بشيء..

وفي اليوم التالي لسفر المركيز و"فيرجيني" قلت للسيد "كاردينال":

"ألا تعرف يا صديقي طريقة جيدة لتوظيف واستثمار مبلغ ثلاثين ألف فرنك؟"

فأجابني، متسائلاً:

- مبلغ ثلاثين ألف فرنك؟ لن أسألك من أين أتى هذا المبلغ، ولا أريد معرفة ذلك. ولكن يوجد في الوقت الحاضر، بسبب الظروف الراهنة، انخفاض كبير في أسعار المباني والعقارات.. وسنشترك بنشرة "الإعلانات الصغيرة".

وبعد ثمانية أيام، اشترينا بيتاً في حيّ "باتينيول"، كان ثمنه مناسباً جداً. وهذا هو السبب الذي جعل السيد "كاردينال" يقلق كثيراً بشأن الدمار والتخريب الذي يمكن أن تتعرض له باريس.

ومع ذلك فقد تحمل السيد "كاردينال" ببطولة وصبر حصار باريس، وبسبب تقدمه بالسن، والآلام العصبية -"الروماتيزم"- التي

يعاني منها، لم يكن يستطيع الخدمة في "الحرس الوطني"، ومع ذلك فإنه كان يجد وسيلة للمساهمة في الدفاع: فهو يذهب كل مساء إلى أحد الأندية! وهذه الحياة لم تكن تزعجه كثيراً، فقد أخذ يُنشئ علاقات جديدة في عالم السياسة. وبدأ يكتسب بعض الأهمية في حيّ "باتينيول" وقد عُيّن مستشاراً، ثلاث أو أربع مرات. بل لقد حدث ذات مساء، في نادي "الملكة البيضاء" أنّ الرئيس كان متوعّكاً، واضطر إلى الخروج لبضعة دقائق، فاحتل السيد "كاردينال" كرسي الرئاسة نيابة عنه.

وكيف سلّمنا "تروشو" ***(Trochu)***[1] إلى "البروسيين" (أي الألمان) بموجب خطته الشهيرة، وهذا أمر نعرفه مثلي.. وقد استسلمنا، وعقدنا الصلح..

فانصاع السيد "كاردينال" وخضع للأمر الواقع، ولكنه أصيب بنوبة حقيقية من السخط والغيظ عندما سمع أن الملك "غليوم" يريد أن يدخل إلى باريس، ولا أدري ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنّ "البروسيين" أتوا إلى حيّ "باتينيول"!.. فلو حصل ذلك لما استطعت تهدئة السيد "كاردينال" ومنعه من التدخل. ولكن لحسن الحظ، فإنهم لم يتجاوزوا حديقة "مونسو".

وأثناء ذلك، لم يكن السيد "كاردينال" يكفّ عن ترديده لي:

---

[1] (Louis Trochu) (لويس تروسو): (١٨١٥- ١٨٩٦) جنرال فرنسي كان الحاكم العسكري لباريس سنة (١٨٧٠) ثم ارأس حكومة الدفاع الوكني في الفترة الواقعة بين (إيلول، سبتمبر ١٨٧٠) و(كانون الثاني، يناير ١٨٧١) (المترجم).

"اسمعي يا سيدة "كاردينال"، "الألزاس واللورين" الخمسة مليارات، فلابدّ من استغلالها، ولكن ليحترسوا من "بوردو"، وعليهم ألاّ يمسّوا الجمهورية! آه! لو أنهم يفكرون بالمسّ بالجمهورية!.

وفي غضون ذلك، حلّ يوم (١٨ آذار، مارس) وأستطيع أن أقسم لك بشرفي أنّ السيد "كاردينال" لم يكن عديم الاهتمام ولا مبالياً بما كان يحدث آنذاك. وقد احتجزته وأغلقت عليه الباب بالمفتاح، طيلة ثمانية أيام. كنت شديدة الحذر.. وكان هنالك جماعة ينصحون السيد "كاردينال" بالانضمام إلى الحركة.. ذلك لأنها كانت تشكّل تجمعاً لا يزدرى به. ولو أنّ السيد "كاردينال" أعلن تأييده "للكومونة" كان لابدّ أن يتبعه ويقتدي به كثير من سكان الحيّ!

ولكنه لم يعلن عن موقفه، وعلاوة على ذلك، فإني كنت أعمل كل ما بوسعي لكي أجعله يلتزم بالهدوء. وأنا، كزوجة كنت بالتأكيد أشاطره الرأي وأؤيد كلّ أفكاره، ولكني لم أكن زوجة وحسب، لقد كنت أمّاً أيضاً، وكان لا يزال لديه ابنة لابد من أن أجد لها عملاً وخطيباً مناسباً، وكنت أقول لنفسي: "دار الأوبيرا مغلقة منذ تسعة أشهر، بسبب ما يحصل من أحداث.. ومن يدري متى ستفتح أبوابها؟ و"بولين" لم تجد عملاً، وربما يكون من الصعوبة بمكان أن أجد لها عملاً أو أن أوظّفها في عهد الحكومة الجمهورية، هذه بينما كان ذلك -وينبغي أن نقول الحق- يتم بسهولة وبصورة تلقائية تقريباً.

وأنا بالطبع، لا أشاطر السيد "كاردينال" آراءه المسبقة، ولا

أؤيد انحيازه ضد الطبقات العليا في المجتمع. فنحن من جهتنا نرى في كواليس الأوبيرا كثيراً من الشخصيات الراقية والمرموقة في المجتمع، ونعترف لهم بحس الذوق وكرم الأخلاق.. كلا، أنا لا أقول هذا مجاملةً وبدافع التهذيب، فأنا أؤمن به. وأعلم جيداً أنه يجب أن يكون هنالك رجال صالحون، وأنا أسألك، ماذا كان يمكن أن يحل ببناتنا الصغيرات، لولا وجود هؤلاء؟! ولكن كما تعلم فإني لا أستطيع أن أطلع السيد "كاردينال" على هذه الأفكار، لأن كان من الممكن أن يقاطعني في الحال، قائلاً: "أنت تعلمين يا سيدة "كاردينال" أني لا أحب التدخل في هذه الأمور".

وبعد مرور ثمانية أيام، كنت مضطرة تماماً لأطلق حرية السيد "كاردينال". وقد وعدني أن يبقى هادئاً. فتركته ينضم إلى لجنة المصالحة، التي شكلت في حيّ "باتينيول".. كانت رائعة!.. كانت تعقد اجتماعاتها كل يوم، وترسل مندوبين إلى "فيرساي" دون أن يؤدي ذلك إلى شيء، ولكن على أية حال، كان لها فائدة كبيرة، فهي تشغل السيد "كاردينال" وتتيح له عملاً، دون أن تُسيء إلى سمعته، أو تورطه بأي عمل يسبب له ضرراً.

ولكن ليس هذا كل شيء، فلكي يلهو السيد "كاردينال" كان لديه "الماسونية" أيضاً، ولا حاجة للقول بأنه كان "ماسونياً" بل لقد احتل فيها منصباً: لقد كان في مرتبة "الإسكتلندي الكبير" في محفل "جاك السادس" المقدس.

وكانت الحركة الماسونية مضطربة.. وقد انقسمت فيها

الآراء، وتوزع أعضاؤها على ثلاثة أجنحة: كان بعض أعضائها يؤيدون الفكرة القائلة بعدم القيام بأي عمل على الإطلاق، وآخرون يقترحون وجوب القيام بتظاهرات هادئة ومسالمة، بينما كان هنالك جماعة يطالبون بإعلان تأييد الحركة لكمونه باريس: "الحكومة الثورية المؤقتة". وكان من رأي السيد "كاردينال" عدم القيام بأي عمل أو نشاط، وأنّ ليس على "الماسونية" أن تتدخل في الحرب أو السياسة.

وكان "المحفل الماسوني" يعقد اجتماعاته كل يوم تقريباً، حيث كان الأعضاء يتناقشون ويتشاجرون، وعند عودة السيد "كاردينال" مساءً إلى البيت، كان يقول لي:

إذا أردتِ، يا سيدة "كاردينال" أن تري رجلاً نجح ولمع في المناقشة، فما عليك إلاّ أن تنظري إليّ.

واستمر العمل بهذا الشكل خلال شهر تقريباً، وأؤكد لك، أنّ السيد "كاردينال" كان يميل إلى تأييد "فيرساي" (أي الحكم الملكي وأنصاره) وليس "كمونة باريس" (أي الحكومة الثورية المؤقتة) لأنه كما تعلم، لم يكن راضياً عن المرسوم الذي أصدرته "الكمونة" بشأن أجور المساكن والبيوت، والبيت الذي اشتريناه في حيّ "باتينيول" كنّا نؤجره وننفق من أجرته على معيشتنا، وكان المستأجرون ينتقلون منه، عندما يحلو لهم ذلك، دون أن يدفعوا لنا الأجرة، ويفعلون ذلك تحت حماية الحرس الوطني.

والسيد "كاردينال" يحب كثيراً ابنته.. وكان حزيناً جداً لأنه لم يرَ "فيرجيني" منذ ما يقرب من ثمانية أشهر، وكان يعرف جيداً أن

المركيز لن يعيد لنا ابنتنا، طالما بقيت "الحكومة الثورية" في باريس.

أما أنا، فقد أصبحت في عداد الذين يؤيدون "فيرساي" تماماً.. صحيح أنّ "الحكومة الثورية" كانت تعمل على إعادة افتتاح "دار الأوبيرا"، ولكن على أن تكون "دار الأوبيرا" ليس فيها رقص باليه! وكنت قلقة جداً على مستقبل ابنتنا "بولين"، ولم أكن أستطيع الامتناع عن القول بيني وبين نفسي: "لا بأس بذلك، لو أنّ نظام الحكم الإمبراطوري استمر سنتين أو ثلاث سنوات زيادة، لكانت "بولين" قد أصبحت اليوم راقصة معروفة، وضعها جيد، ومستقبلها مؤمن، على أية حال، وبجميع الوسائل.

وأنا أستميحك عذراً، فقد أكثرت من الثرثرة حول هذا الموضوع... ولكن، كما تعلم، فالأمّ عندما تتحدّث عن ابنتها، لابدّ أن تتغلّب عليها عاطفتها..

وأصل الآن إلى ٢٨ نيسان "إبريل".. هذا التاريخ الرهيب.. وذلك اليوم الذي جرّ علينا جميع المصائب.. فمنذ ما يقرب من أسبوع، كانت تسقط من وقت لآخر، بضعة قنابل على أطراف حيّ "باتينيول"، وكان السيد "كاردينال" يخرج صباح كل يوم لكي يتفقّد المنزل.. وهاهو يعود، في الساعة الحادية عشرة، يوم ٢٦ نيسان، وقد جحظت عيناه، وأسنانه تصطكّ في فمه، عندما قال لي: "سيدة كاردينال! أتعلمين ماذا حدث يا سيدة كاردينال؟"

- كلا يا سيد كاردينال، ولكنك أخفتني.

- إيه، حسناً، إليك ما الذي حدث: "لقد قصفنا السيد "تيير" *(Thiers)*[1] بالقنابل!..

نعم، هذا الذي لم يفعله السيد "بسمارك" البروسي، فعله السيد "تيير" الفرنسي! فلم تسقط أية قذيفة بروسية في حيّ "باتينيول". وهذه الليلة سقطت قذيفة فرنسية أطلقها جماعة "فيرساي" على سطح منزلنا فخرّبته، وسيكلفنا إصلاحه ألفاً وخمسمائة فرنك على أقل تقدير.

فحاولت تهدئة السيد "كاردينال" وحضرت له شراباً مهدئاً سقيته منه، ولكنه أخذ يصرخ بقوة وبشكل مفاجئ، لأنه كان غاضباً وساخطاً:

"لم أكن أنوي الذهاب غداً للمشاركة في التظاهرة الماسونية، ولكني سأذهب يا سيدة كاردينال، وسأسير في الصف الأول، معرضاً صدري لرصاص جماعة "فيرساي".. قبعتي، أعطني قبعتي.. هنالك اجتماع عند الظهر في المحفل الماسوني.. وسأذهب لألتقي بأخوتي"

ورغم صياحي ودموعي فقد ذهب.

---

[1] (أدولف تيير) (Thiers) ١٧٩٧- ١٨٧٧: سياسي، صحفي ومؤرخ فرنسي، أسس صحيفة الوطني سنة ١٨٣٠، دافع فيها عن الحكم الملكي البرلماني، على الطريقة الإنكليزية، تقلد عدة وزارات وترأس الوزارة مرتين. وعندما عيّن رئيساً للسلطة التنفيذية (١٨٧١) عقد معاهدة صلح مع البروسيين وسحق مقاومة "كمونة باريس" وعندما انتخب رئيساً للجمهورية في السنة نفسها أعاد تنظيم فرنسا المهزومة. وبعد أن تعرض حكمه لانقلاب نظمه تحالف الملكيين والمحافظين، ظلّ زعيماً لجبهة الجمهوريين المعارضة، وكان أيضاً عضواً في المجمع العلمي الفرنسي. (المترجم).

وكـان قـد أُعـلن عـن القيـام بتظاهـره كـبرى، في اليـوم التـالي. يقـوم المتظاهـرون أثناءهـا بتعليق اللافتـات الماسونية على الأسوار، وقد تعهـد الأخـوة الماسـونيون بمهاجمـة جماعـة "فيرسـاي" في الحـال، إذا أصـابت هـذه اللافتات رصاصة واحدة. وقبل يوم واحد، وحسب، كـان السـيد "كـاردينـال" لا يـزال يعـارض هـذا المشـروع، ولكـن لم يكـن منزله. آنـذاك قـد قُصـف بعـد! والإصـابة بقنبلة تحـدث أضـراراً يكلف إصلاحها ألفاً وخمسمائة، تغيّر كثيراً عواطف ومشاعر الإنسان.

وعـاد السـيد "كـاردينال" إلى المنزل، عند السـاعة الرابعة: كـان هـادئـاً، بـادي الجدية والوقـار، ويحمل في يده عصـا طويلة، وعلى الفور قال لي:

"يـا سـيدة كـاردينـال، عليك أن تتدبّري الأمر كما تستطيعين، ولكـني أريـد منك أن تصنعي لي لافتة تكون كـالراية الماسونية، فأنا بحاجـة لهـا غـداً صـباحـاً عند السـاعة الثامنـة، أو الثامنـة والـربع.. يجب علـيّ أن أحمـل لافـتـة، وقـد تعهـدت بإحضـارهـا لأنـه، كمـا تعـلمين، كلما كـان هنالك المزيد من الرايات واللافتات، كلما ازدادت أهمية التظاهـرة، وجعلـت ذلـك الـذي يقصـفنا بالقـنابل يفـكـر بعواقـب عمله! وإليك هـذه العصا من أجل اللافتة!".

ولاحظـت في الحال من هيئة السيد "كـاردينال" ومن لهجته أنه لا مجـال لمناقشـته في هـذا الموضوع، واضطررنا أنا و"بولين" أن نبدأ العمل علـى الفـور، وبواسطة فستان رقص قديم من فساتين "فيرجيني" صنعنا لافـتـة كـانت بالحقيقـة جميـلة جـداً، وقـد ضـحّيت بـإحدى تـنوراتي

الداخلية الصوفية، ووضعت طبقة من الفلانيلة بين طبقتي الحرير. وقد أعطى هذا العمل قوة للافتة. ولكنّ أنجح ما فيها كان النداءات والشعارات، فقد قصيت من قطعة ساتان زرقاء أخذتها من أحد أثواب "فيرجيني" مثلثاً وكوساً ومطرقة وجميع الحروف اللازمة لكتابة هذه العبارة: "أحبوا بعضكم بعضاً!" ثم ألصقت كل هذا على الحرير الأبيض، فبدت اللافتة جميلة جداً وذات تأثير شديد! وعندما ذهب السيد كاردينال الساعة الثامنة والنصف في عربة مكشوفة، ولافتته تخفق في الهواء، تعالت من كل جانب في حيّ "باتينيول" صيحات الإعجاب.

وقبل أن يصعد السيد "كاردينال" إلى العربة، عانقني على الرصيف، وسط مجموعة من الناس يتراوح عددهم بين مائتين وثلاثمائة شخص، وكنت أنا أبكي وأصرخ وأتعلق بملابسه، قائلة له: "لا أريد أن أفارقك يا سيد "كاردينال"! وأنت تتعرض للأخطار من أجل زوجتك! وأنا أريد أن أشاركك في كل هذا!.

ولكنه، أجابني بقوله:

كلاّ، كلاّ، يا سيدة "كاردينال" لن أصطحبك معي. فأنا بحاجة لكل قواي، ويمكن أن يجعلني أشعر بالضعف وجودك معي. الوداع!.. دعيني.. سأذهب وأعرّض صدري لرصاص جماعة "فيرساي"! نعم سأعرّض صدري لهم بعد أن تعرض منزلي لقنابلهم!.

وعند ذلك عانقني، حيّا الجمهور المحتشد على الأرصفة وانطلق بعربته، وأنا وقد فار دمّي، وكدت أشعر بالإغماء سندتني السيدة

"كانيفيه" صاحبة البقالية المجاورة، فأخذت أنظر إلى العربة وهي تبتعد وإلى اللافتة التي كانت تخفق فوق رأس السيد "كاردينال". وأخذ الجميع يهنئوني على تلك اللافتة. ولكنك تدرك جيداً أنّ ذهني لم يكن آنذاك واعياً لتقبّل المديح والتهاني.

ولم تكد العربة تنعطف وتختفي عند زاوية الشارع حتى تبادرت إلى ذهني هذه الفكرة: "إنه لم يشأ أن أرافقه، ولكن لي الحق بأن أشاهد الموكب عند مروره في الشارع. نعم ويجب أن أجعل "بولين" تراه أيضاً، لكي يبقى في ذاكرة هذه الطفلة". عند ذلك فكّرت على الفور بالسيد الكونت "غليّول" الذي كان على الدوام يبدي اهتماماً شديداً ببنتيّ.. وقد اصطحبت "فيرجيني" معي إلى منزله مرتين أو ثلاث مرّات.. ولم يكن يكفّ عن القول لي، قبل الرابع من أيلول: "أحضري لي "بولين" في صبيحة أحد الأيام". وكما تعلم فإن السيد "غليّول" ليس من أولئك الماجنين الذين لا همّ لهم سوى التسبب بضياع بناتنا، كلاّ إنه ليس من هؤلاء، إنه رجل رصين وجدّي، يمكن للأم أن تأتمنه على ابنتها، وهو يجيد الرقص ويجيد العيش في هذه الحياة، ولم يسبق له أن أعطى سوى النصائح الجيدة والمفيدة لفيرجيني. وقلت في سرّي: "سأصطحب معي "بولين" إلى منزل الكونت. وهو يقيم في الطابق الأرضي على جانب شارع "المادلين" وهذا سيناسبنا تماماً، فسنجلس هناك على المقاعد الأمامية، لكي نرى السيد "كاردينال" عند مروره مع الموكب".

وقد استقبل السيد "غليّول" "بولين" معانقاً وبالأحضان. وأجلسني

على أريكة كبيرة أمام إحدى نوافذ الصالون. وجلس مع "بولين" أمام نافذة أخرى، لأنّ نافذة واحدة لا تتسع لثلاثة ونكون محشورين جداً، ونضايق بعضنا..

وعند الساعة الواحدة بدأ الموكب يمرّ من أمامنا. وهذا حقّاً إنّ من لم يره لم يرَ شيئاً على الإطلاق، لقد كان رائعاً!:

في المقدمة أعضاء "كومونة باريس" (الحكومة الثورية) متزنّرين بأوشحتهم، وبعدهم ثلاث سرايا من جنود "الكومونة"، ثم الوفود الماسونية ومندوبوها، وأخيراً بعدهم الأعيان وأصحاب المناصب العليا، وبين هؤلاء، كان السيد "كاردينال" وهو مشرق الوجه حاملاً لافتتي.. فانحنيت على النافذة وصحت بأعلى صوتي للصغيرة: "بولين"! "بولين"! أبوك، هيا تعالي انظري، هاهو أبوك.. ولكني نظرت في كل الاتجاهات وبحثت كثيراً، فلم أرَ "بولين" فتابعت الصياح: "بولين هيا! أين أنت، وماذا تفعلين؟ أقول لك، هاهو أبوك، تعالي انظري إليه!"

وأخيراً سمعتني، وانحنت على النافذة، كانت محمرة الوجه من شدة الانفعال، الفتاة المسكينة، فقلت لها: "لوّحي بمنديلك يا بولين لوّحي بمنديلك" وعند ذلك أخذنا نحن الاثنتين نلوّح بمنديلنا. وأخذت أنادي بأعلى صوتي: "سيد كاردينال يا سيد كاردينال.. نحن هنا، في الطابق الأرضي، نحن هنا!" فسمعني والتفت نحوي، ثم أحنى لافتته عند مروره من أمامنا.

وعندما أردت الانصراف أنا و"بولين" قال لي السيد "غليّول": "اتركي لي الصغيرة، وسأعيدها لك عند المساء، بعد أن نتناول طعام

العشاء". ولكني أجبته: "كلا، كلا، يا سيدي الكونت، ليس اليوم، ليس عندما يكون السيد "كاردينال" معرضاً لمثل هذه الأخطار، أستطيع مفارقة ابنتي، فليكن ذلك في أي يوم آخر، كما تشاء!" وانصرفت مصطحبة "بولين"..

عدنا إلى البيت، كان يمكن أن تكون الساعة الثالثة آنذاك.. وقد توقف القصف المدفعي. فاطمأنيت قليلاً. ولكن عند الساعة الرابعة سمعت ثلاثة أو أربعة انفجارات، فانشغل بالي وصحت: "آه! يا لهم من أشقياء، إنهم يطلقون قنابلهم على السيد "كاردينال" ولم أكن مخطئة.!

فقد فُتح الباب بعنف عند الساعة السادسة، وبدا السيد "كاردينال" فاقد الوعي، بدون قبعة، زائغ العينين، يغطيه غبار أبيض. فهل تعرف ماذا حدث؟ لقد سقطت إحدى قنابل "جماعة فيرساي" بالقرب من السيد "كاردينال" مباشرة، بينما كان ينصب لافتته، بين باب "مايو" وباب "دوفين".

ولزم السيد "كاردينال" السرير، مصاباً بحمّى شديدة، وطيلة أسبوع بكامله، سبب لي قلقاً شديداً، كان يهذي كل ليلة مردداً العبارات نفسها على الدوام: "السيد تيير ***(Thiers)*** يقذف القنابل يقذفها على منزلي! وعليّ شخصياً! فلتحيا الحكومة الثورية! تعيش الكومونية".

وعندما تعافى السيد "كاردينال" في حوالي ١٥ أيار "مايو"، لم أستطع منعه من الانخراط بحماسة شديدة في الحركة، وقد عرض

عليه أن يختار، بين منصب في مكاتب الحرب، وبين وظيفة في دوائر القضاء، فدفعته إلى اختيار وظيفة القضاء، لأنها كانت تبدو لي أقل تعرضاً للأخطار، أكثر لياقة، وأكثر تناسباً مع طباع السيد "كاردينال". ويوم الجمعة الواقع في ١٩ أيار، نشرت "الجريدة الرسمية" القرار الذي يقضي بتعيين السيد "كاردينال" قاضياً للصلح. كنت أنا قلقة جداً، ولكن لا بأس فيجب أن أعترف بأني مع ذلك كنت مزهوة لرؤيتي اسم السيد "كاردينال" منشوراً على الصفحة الأولى في الجريدة الرسمية. وكان على السيد "كاردينال" أن يعقد جلسته الأولى، الساعة التاسعة يوم الاثنين التالي.

وقبل ذلك بيوم، أي يوم الأحد، ذهب ليتصوّر بروب القاضي الرسمي وفي وضعيتين مختلفتين: في الوضعية الأولى كان بمفرده، جاداً، مستغرقاً في التفكير، مستنداً على أحد الأعمدة، وبيده عدد التاسع من أيار من الجريدة الرسمية. وفي الوضعة الثانية لم يكن بمفرده.. كنت أنا أستند على ذراعه وهو يشير لي إلى عدد الجريدة.. وأنا أبتسم له.

وفي صباح يوم الاثنين عند الساعة التاسعة، كان السيد "كاردينال" بلباسه الرسمي، جالساً على أريكة القاضي الفخمة، كان يبدو مهيباً ووقوراً، بحيث يخيّل لمن يراه أنه لم يعمل في حياته عملاً آخر سوى هذا العمل.. وبالطبع كنت قد اصطحبت معي "بولين" إلى هناك. ونودي على القضية الأولى.. ولكن لم يكد المدّعي يدخل، حتّى اندفع إلى قاعة المحكمة أحد جنود "الحكومة الثورية" وصاح

قائلاً: "العدو في عقر دارنا!.. هيا! الجميع إلى الحواجز وإلى المتاريس.."

عند ذلك بقفزة واحدة، أصبحت أنا على المنصة. فنزعت "الروب" الرسمي عن السيد "كاردينال" وألقيت قبعته الخاصة بالقاضي، بعيداً في إحدى الزوايا، واقتدته على جناح السرعة إلى البيت، وهناك أغلقت عليه بالمفتاح باب إحدى الغرف، وطيلة ستة أسابيع، لم يضع رجله خارج منزله. وبعد انقضاء هذه الأسابيع الستة، بدأت أتنفّس الصعداء، عندما قرع الباب، صباح ذات يوم –وكان الثالث من تموز "يوليو"- فذهبت "بولين" وفتحت الباب، ثم عادت مذعورة وهي تصرخ: "أمي! أمي، إنهم رجال الشرطة!".

كانوا بالفعل، رجال الشرطة، وقدّموا للسيد "كاردينال" الصورة، التي كان من غفلته وسوء حظه أنه أخذها لنفسه عند المصور في اليوم الذي دخل فيه "جماعة فيرساي" إلى باريس، بالذات.

وكان موقف السيد "كاردينال" بالحقيقة مثيراً للإعجاب، فقد قال لهم: "نعم، هذا أنا، وإني مستعد لأن أتبعكم وقد قررت التضحية بحياتي، ولن أفتديها بعمل منحط.. اسمحوا لي أن أعانق زوجتي، وسأكون تحت تصرفكم."

عند ذلك فتح لي ذراعه. فألقيت نفسي بينهما، فهمس بأذني بمزيد من السرعة، قائلاً: "لا أحد سوى المركيز يستطيع أن يخرجني من هناك.. فأنا أتذكر أنه على صلة وثيقة مع السيد "تيير" وكثيراً ما كان يتناول طعام العشاء معه في منزله الكائن في ميدان "سان جورج".

ثم جلّس ظهره، والتفت نحو مفوض الشرطة، وقال له: "هيا بنا، ولنمشِ، أيها السيد لنمشِ".

فأرسلت في الحال برقية عاجلة إلى "فيرجيني" قلت لها فيها: "أبوك في السجن، احضري بسرعة، أنت والمركيز، فهو الوحيد الذي يستطيع إنقاذنا".

إيه،والحق يقال، إن المركيز، بالحقيقة رجل شهم ونبيل، إذ إنه لم تمضِ سوى ثمان وأربعين ساعة على إرسالي البرقية حتى كان قد وصل إلى باريس، وعندما قلت له: "لقد أثبتّ أنك طيب جداً بمجيئك بهذه السرعة!" أجابني: "لا تشكريني، لقد كنت بحاجة لمقابلة السيد "تيير" من أجل قضايا روما. وسأتحدث إليه في الوقت نفسه عن موضوع السيد "كاردينال".

وفي اليوم التالي، كان السيد "كاردينال" قد أُعيد لي.

❖ ❖ ❖

في تلك اللحظة عادت الراقصات، كالأزهار والفراشات عبر الضجيج والصخب إلى قاعة الملابس.

وأتت "بولين" وهي فرحة مبتهجة ووقفت أمام السيدة "كاردينال":

انظري يا ماما، انظري إلى أذنيّ: هاتان الماستان الصغيرتان، السيد "غليّول" هو الذي جلبهما لي هذا المساء.

فوضعت السيدة "كاردينال" بسرعة نظارتها على أنفها،

وتفحّصت الماستين الصغيرتين، وكانت على ما يبدو راضية ومسرورة بنتيجة تفحصها للماستين، لأنها التفتت نحوي، قائلة:

السيد "غليّول" معجب بـ"بولين" ويلاطفها كثيراً.. إنه وحي من السماء هو الذي جعلني أذهب إلى منزله بتاريخ ٢٩ نيسان..

والآن، هيا، ، انصرف.. إنك تضايق هؤلاء الفتيات! فهن لا يستطعن خلع ملابسهن والتعرّي أمامك.

نوفمبر "تشرين الثاني" ١٨٧١.



بنات عائلة "كاردينال"

كان ذلك يوم ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر)، المساء الذي أعيد فيه تقديم مسرحية "دون جوان" في دار الأوبيرا. كان المغنون يقدمون أغاني الفصل الثاني. وكنت أجلس على كرسيّ في الصف الأمامي وفي الجانب الأيمن، في زاوية يجلس فيها الروّاد القدامى الذين اعتادوا حضور جميع المسرحيات التي تقدم والذين لا "يستمعون" أي لا يهتمون إلا بمشاهدة رقص الباليه.. ولأنّ رقص الباليه لم يكن يقدم إلا في الفصل التالي، فلم يكن يوجّه في تلك الزاوية سوى القليل جداً من الانتباه إلى المشاجرة بين "زيركين" و"مازيتّو"..

كنّا نتحدّث.. نثرثر.. نتكلم عن الماضي، عن القاعة القديمة التي كانت في شارع "لوبولوتيه" عن دار الأوبيرا التي كانت موجودة قبل الحرب وقبل الحريق.. وكم حصلت خسائر لا تعوّض في فرقة رقص الباليه! وكم اختفت فتيات جميلات وظريفات! كفتيات آل "فيلّوروي" وفتيات آل "براش" وفتيات آل "فولتير" وفتيات آل "جورجو".. وبنات عائلة "كاردينال" الصغيرات..

بل ابنتا عائلة "كاردينال"، فقد كانتا اثنتين، وقد نسيتهما.. هاتان الصغيرتان المرفقتان على الدوام بأمهما الموقرة المهيبة والبدينة، السيدة "كاردينال" التي يزيّن رأسها تاج كثيف من الشعر الأبيض، والتي تعلو أنفها الكبير المسوّد من دخان التبغ، نظّارة فضية جميلة.. والسيد "كاردينال".. لم أكن أعرف شيئاً آنذاك، عن مصير تلك العائلة الهامّة.. وقد بدا لي أن الفرصة مواتية لكي أحصل على أخبار عنها.

وعندما أسدل الستار صعدت إلى المسرح.. وها أنا في ندوة الراقصين، وقبل أن يبدأ الفصل الذي يقدم فيه رقص الباليه وقد بدأت بأناة وصبر القيام بتحقيقي البسيط. سألت الراقصات القديمات في الأوبيرا: كان الجواب واحداً لا يتغير في كل مكان: "فيرجيني" لم ترجع إلى دار الأوبيرا، بعد الحرب، و"بولين" لم تظهر ثانية على مسرح "الإيطاليين" بعد الحريق. فلم يعد هنالك أثر لابنتي أسرة "كاردينال"! ولا للسيدة "كاردينال"! ويبدو أنّ السلسلة قد انقطعت.

وعلاوة على ذلك فإن الجميع كانوا يصغون لي بأذن لاهية. فلم يكن آنذاك العرض الأول لمسرحية "دون جوان" وحسب، بل كان أيضاً العرض الأول لأزياء وملابس "غريفان" وكان هؤلاء الآنسات يتمايلن ويتزاحمن أمام مرآة قاعة الممثلين الكبيرة، يشدّدن أربطة أحذيتهنّ، يتمطّين بقوة، ويبرزن انتفاخ تنانيرهن المصنوعة من الشّاش الشّفاف. ثم فجأة: "بررر! بررر!" يرنّ الجرس الكهربائي: إلى المسرح!.. إلى المسرح!.. فيخرج حشد كبير من الممثلات والراقصات، بعضهنّ

كالدمى، والبعض الآخر كالمهرجين، ويصطف الجميع بكل نظام على خشبه المسرح، بانتظار إشارة بدء العرض، فيشبهن بذلك مجموعة من الأحصنة الصغيرة والجميلة. وقد أخذت تهزّ رؤوسها، تضرب الأرض بحوافرها، تخمخم وتقنطر، مستعدة للانطلاق. كان المشهد يبدو رائعاً لمن ينظر إليه، ولكنّ هذا لم يوفّر لي أية معلومات عن مصير السيدة "كاردينال".

تلقيت ضربة خفيفة على كتفي. فالتفت ووجدت نفسي وجهاً لوجه أمام راقصة صغيرة وظريفة، ترتدي ملابس المهرجين الغريبة بأشكالها وألوانها، وفي وسط كل هذا وجه جميل لفتاة في السادسة عشرة من العمر، تنمّ تعابيرها عن النباهة والذكاء.

السيد "س".. أهذا أنت؟

نعم، هذا أنا.

وأنت تسأل عن أخبار السيدة "كاردينال"؟

نعم، أنا.

إيه! إذا كان لا يزعجك الصعود إلى الطابق الرابع، اصعد وقابل عمتي السيدة "كانيفيه".

السيدة "كانيفيه"؟

نعم، وهي تعمل في شرفات الطابق الرابع وترشد المشاهدين إلى أماكن جلوسهم، في جانب الأرقام المزدوجة من المدرج. وهي على اتصال مع السيدة "كاردينال".

ولكن ربما كنت أنت، لديك بعض المعلومات عنها.؟

يا إلهي نعم، ولكني لا أعرف عنها شيئاً هاماً، كل ما أعرفه هو أنها..

ولكن، أتى فجأة من قاطع "الدمية" الصغيرة قائلاً لها:

ماذا تفعلين هنا، يا آنسة "كانيفيه"؟ هيا إلى مكانك على خشبه المسرح!

كان هذا صوت المشرف على الرقص، السيد "بلوك" الظريف، الذي يبدو جاداً ووقوراً بلباسه الأسود وربطة عنقه البيضاء، وهو يراقب تحركات أفراد جيشه الصغير. وبثلاث قفزات ذهبت الآنسة "كانيفيه" لتحتل مكانها في موكب المساخر، ومن أعلى المسرح، أخذت تصيح بي:

اذهب وقابل عمتي! اذهب وقابل عمتي.!

❖ ❖ ❖

وأقسم بأني ذهبت إلى هناك، بعد أن شاهدت رقص الباليه، أثناء عزف الخاتمة الموسيقية، واعذروني إذا قلت لكم إنّ ظلّ "موزار" ثقيل. والشرفات في الطابق الرابع عالية جداً!.. ومع ذلك فقد وصلت إليها، بعد أن صعدت على أدراج فخمة، ومررت بأروقة مغطاة بالموزاييك والفسيفساء. وعندما وصلت سألت أول عاملة التقيت بها:

جهة الأرقام المزدوجة في المدرج؟

هذه هي.

السيدة "كانيفيه"؟

أنا هي.

أخذت السيدة "كانيفيه" تنظر إليّ بانتباه شديد، ثم صاحت:

ولكن، انتظر إذن، فأنا أعرفك، ألست السيد "س"..؟

نعم أنا السيد "س"..

إني أعرفك جيداً، وقد سبق لنا أن تناولنا طعام العشاء سوية.

تناولنا طعام العشاء سوية! وأين حصل ذلك؟

نعم، لقد حصل ذلك في منزل السيدة "كاردينال".

عند ذلك تذكرتها دفعة واحدة، كما لو أنّ ذلك حصل عبر ستارة تمزقت فجأة، ورأيت تلك المائدة التي جلسنا إليها، نحن الاثنين: أنا والسيدة "كانيفيه". نعم لقد حصل ذلك في منزل السيدة "كاردينال" الكائن في حي "باتينيول".. وقد مضى على ذلك ما يقرب من عشر سنوات.. فقد كنّا ذات مساء، في الأوبيرا، في الأوبيرا القديمة المنكودة الحظ، التي كانت في شارع "دروّو" والتي احترقت.. كمّا آنذاك أربعة.. نعم، أربعة.. وقد استعدت تلك الذكريات بكل وضوح، عضو في مجلس الشيوخ، عضو حقيقي، كان يحتل مقعدة في قصر "اللكسمبورغ" بلباسه الرسمي المطرّز، والسكرتير الأول في إحدى السفارات الأجنبية الكبيرة، أحد الرسامين، وأنا، خادمكم الشديد التواضع. كنّا في أحد الأروقة.. وكان في دار الأوبيرا القديمة، أروقة كثيرة وجميلة، فيها الكثير من الزوايا والخلوات

السيئة الإضاءة، لا ينيرها سوى فوانيس بترولية صغيرة، يتصاعد منها الدخان. كنّا قد أمسكنا الابنتين "كاردينال" في ذلك الرواق، وطلبنا منهما أن يحققا لنا السرور بحضورهما في اليوم التالي لتناول طعام العشاء معنا في المطعم الإنكليزي، كانت الفتاتان تتحرقان رغبة وشوقاً لذلك ولكنهما قالتا إن أمّهما لا يمكن أن توافق على حضورهما بمفردهما. وأضافتا: أنتم لا تعرفون ماما!..

وفجأة، بدت في آخر الرواق تلك الأم المخيفة، وما أن رأتنا حتى صاحت: "ها أنتم تُلهون ابنتيّ عن عملهنّ لكي تسبّبوا لهما العقوبة".

أوه يا سيدة "كاردينال".

لا أحبّ أن أراهما تتسكّعان في الأروقة.. لا أريد هذا.. إنه غير لائق.

فدفعت عضو مجلس الشيوخ إلى الأمام، إذ إنّ السيدة "كاردينال" تكنّ اعتباراً كبيراً لأصحاب المناصب والنفوذ.

فتولّى "السيناتور" الكلام، وقال لها:

على رسلك يا سيدة "كاردينال"، وأرجو ألا تستائي، فأنا هنا ووجودي يجب أن يطمئنك.. والأمر في منتهى البساطة والبراءة، وكل ما هنالك إنّا كنّا نطلب من هاتين الصغيرتين العزيزتين الحضور لتناول طعام العشاء معنا في المطعم الإنكليزي..

بمفردهما، وبدون أمّهما؟

ولكن، يسرنا كثيراً أن تحضري أيضاً يا سيدة "كاردينال"..

هكذا إذن، بعض أفراد أسرة كاردينال يذهبون ليلهوا في المطاعم والحانات! ولماذا لا يحضر أيضاً السيد "كاردينال" طالما ستكونون أنتم هناك؟ هل تسخرون من الناس ولا تقدرونهم أبداً؟

وقذفت السيدة "كاردينال" هذه العبارة بعنف في وجه السيناتور، ولكنها توقفت فجأة وقد بدا عليها الاضطراب، وتغيرت ملامحها.. فقد شعرت أنها تمادت، وذهبت بعيداً.. وخشيت أن تكون قد أغضبت السيناتور فحاولت إصلاح الأمر والاعتذار عن خطئها:

أرجو أن تصفح عنّي فقد أخطأت، ولكنك تعلم أني أصبح كاللبوة، عندما يتعلق الأمر بابنتيّ.. أتريدون تناول طعام العشاء مع الفتاتين؟ حسناً يمكن تسوية الأمر..

أتريدون أن تحضروا غداً، أنتم الأربعة ببساطة ولا تكلف، لتناول الحساء ولحم البقر، عندنا في المنزل؟ والسيد "كاردينال" سيسرّ كثيراً بذلك..

فتبادلنا الرأي بالنظرات، ودون أي اعتراض، وبمزيد من الجدّية، رغم الرغبة الشديدة بالضحك التي كانت تمسك بخناقنا، أعلنّا موافقتنا على قبول الدعوة..

وفي اليوم التالي، بعد أن أرسلنا، منذ الصباح الباكر، عدة سلال ملأى بالدجاج والطيور، وسلال أخرى فيها زجاجات النبيذ المعتق والشمبانيا، قرعنا باب بيت السيد "كاردينال" عند الساعة والنّصف، فاستقبلنا بمزيد من الترحاب. وإذا ما توخّينا الدقة في

الأمور، يمكن أن نلاحظ شيئاً من التحفّظ حيال "السيناتور"، ولكن ذلك كان بسيطاً وبسيطاً جداً، وقد سارت الأمور على ما يرام.

وكانت الفتاتان لطيفتين جداً، بفستانيهما الأبيضين الشّفافين وزناريهما العريضين الأزرقين. وكان الأب والأم وابنتاهما، يشكلون لوحة جميلة تكاد تكون مؤثرة. وكان يسود الجو شعور بالفضيلة العائلية.. وكنّا جميعاً، بدءاً بالسيد "كاردينال" نرتدي الملابس السوداء، ونضع ربطات عنق بيضاء.. ولابدّ أن حفلتنا هذه كانت تبدو شبيهة بعرس ريفي بسيط.

درنّ، درنّ.. وقُرع الجرس، فصاحت السيدة "كاردينال":

لابدّ أنه أحد الخدم وقد أتى حاملاً لنا فطائر اللحم والسمك. ودخلت وصيفة صغيرة، تحدثت بصوت خافت مع السيدة "كاردينال" التي بدا عليها الاضطراب، ونادت "فيرجيني" فتشاورتا بحماسة وسرعة.. وبالتأكيد لم يكن ذلك بشأن الفطائر، ولكن ماذا هناك؟

أخيراً أتت "فيرجيني" نحونا، وقالت لنا:

إليكم، ما الذي حدث:

السيدة "كانيفيه" وهي صديقة قديمة لأمي، امرأة طيبة جداً، أتت تطلبنا لتناول طعام العشاء.. أرادت أمي أن تطردها.. فقلت لها، لم يكن ذلك لائقاً.. لأنها تعمل في دار الأوبيرا، وليس هنالك ما يدعو لذلك..

فصرخنا نحن الأربعة بصوت واحد:

إننا نطالب بالسيدة "كانيفيه".. فلبّي طلبنا.. دخلت.. وقُدّمت لنا فتعرفنا عليها، وجلسنا إلى المائدة.. فما أطيبه ذلك العشاء! ويا لعذوبة تلك الأحاديث!

وأنا لا أتذكر أني أكلت بمثل تلك الشهية، ولا بتلك البهجة، طيلة حياتي.. فقد كانتُ حفلة، بل عيداً لا مثيل له!

وكانت السيدة "كانيفيه" تأكل بشهية كبيرة وتشرب كثيراً ولكن دون أن يؤثر ذلك على وعيها. وفي كل مرة كانت تجد فيها مجالاً للتحدث، تأخذ بترديد الجملة التالية، بدون اهتمام وترفقها بابتسامة عذبة، توجهها للسيناتور:

عندما أفكر، أني لو حصلت على قليل من الحماية والرعاية، لتمكنت من النزول من طابق الشرفات الرابع، إلى الطابق الثالث!

وكان السيناتور يتصنّع الغفلة وعدم الفهم، ويبدو وكأنه لا يسمع ما تقول السيدة "كانيفيه" ولكنّ هذه لم تيأس، وظلّت تردّد عبارتها، وكأنها "اللازمة" في إحدى الأغاني:

عندما أفكر، أني لو حصلت على قليل من الحماية.. الخ.. الخ..

وعندما كنّا نتناول الحلوى، بعد أن فرغنا من تناول الطعام، تشاجر السيد "كاردينال" هو والسيناتور بشأن موضوع الانقلاب. وكانت تلك المشاجرة خاتمة تلك الحفلة الظريفة.

وهكذا، فقد التقيت ثانية بالسيدة "كاردينال" وهي لا تزال تعمل في شرفات الطابق الرابع.. ولم تنزل إلى الطابق الثالث، وبدا لي

أنه من المناسب أن أبدي استغرابي من ذلك، فقالت لي:

كنت على وشك النزول، وربما كنت نزلت، لو لم يحدث ما حدث في الرابع من أيلول "سبتمبر".. ولكن دعنا من هذا، أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟

لقد قيل لي أنك تستطيعين أن تعطيني بعض الأخبار عن السيدة "كاردينال".

بالتأكيد وسأعطيك آخر أخبارها، وهي حديثة العهد.. تعود لأول أمس.. فقد كتبت لي، وتلقيت بالأمس رسالتها، ولكن أرجوك أن تتفضل بالجلوس.

وأفسحت لي مكاناً بقربها على مقعد أنيق مغطى بالجلد الصناعي المستورد من "قرطبة".. إذ إن مظاهر الأناقة والترف تسود في دار الأوبيرا، وتصل حتى إلى أروقة شرفات الطابق الرابع. جلست على المقعد بجانب السيدة "كانيفيه" وأخذنا نتحدث ونثرثر.

كان هنالك أحد الحراس المحليين، وقد أخذ يغفو بالقرب منّا، في الطرف الآخر من المقعد، وهو ببزّته الرسمية وخوذته على رأسه، وقد وضع يديه على سيفه..

وعبر نوافذ الشرفات الصغيرة، كانت أصداء ألحان خاتمة "دوم جوان" الموسيقية، تبلغ مسامعنا، وتبدو مصاحبة لأحاديث وكلام السيدة "كانيفيه":

انتقلت السيدة "كاردينال" إلى الريف، هي والسيد "كاردينال"

بالطبع.. فقد اشترت لهما "فيرجيني" منزلاً جميلاً في "ريبومون" وهي قرية تقع بالقرب من "سان جيرمان".. وقد قدّمت لهما هذا المنزل كهدية بمناسبة عرسها.. إذ إن المركيز، ألا تتذكره؟ كان من حسن حظّه أنه ترمّل، وتزوّج "فيرجيني" فأصبحت "مركيزة" بحق وحقيق.

أمّا الصغرى "بولين" فلا أدري ماذا حلّ بها. أظن أنها قد انحرفت وضلّت الطريق. فقد تحدثت عنها مع السيدة "كاردينال" مرتين أو ثلاث مرات، وكانت تجيبني: "لم يعد لي سوى ابنة واحدة، وهي مركيزة تقيم في فلورنسا، فلا تحدّثيني أبداً عن الأخرى". لذلك لم أعد أحدثها عنها. وقد تسألني عمّا إذا كانت السيدة "كاردينال" مسرورة بإقامتها في الريف، نعم فهي مسرورة وتلهو هناك، وكما تعلم فقد اعتادت على ذلك في حي "باتينيول" وهذا حبّب إليها حياتها الجديدة.. ولكنها امرأة تهتم بواجباتها، وعندما أدركت أنّ الأمر يتعلق بمستقبل السيد "كاردينال" السياسي، فقد انحنت ووافقت على العمل.. يا إلهي، نعم لقد بدأ يعمل بالسياسة بصورة جدّية، وكان هذا حلمه، على الدوام. وقد كتبت لي السيدة "كاردينال" في رسالتها الأخيرة، تقول: "السيد كاردينال مسرور، مسرور جداً، والأمور تسير على ما يرام، كل شيء على ما يرام تماماً.."

عند ذلك حدثت ضوضاء وهرج ومرج، وفُتحت جميع الأبواب: إنها فترة الاستراحة، وقد أسدلت الستارة. وبدأ المشهد الحقيقي، فقد اندفع جميع هؤلاء الناس الطيبون، وهم بغاية السرور، يشعرون

بالخلاص، نحو الدرج، وأخذوا يتراكضون باتجاه الندوة الكبيرة، كما يتراكض الناس للتفرّج على إطلاق الأسهم النارية.

ذهبت السيدة "كانيفيه" لتقوم بعملها، فانصرفت عند ذلك.

وهكذا إذاً، فالسيد "كاردينال" جادّ في عمله في السياسة وهو مسرور، والأمور على ما يرام، فبدا لي أنّ هذه الظاهرة تستحق الدراسة عن قرب. والقيام برحلة قصيرة إلى "ريبومون" ليس سوى نزهة ممتعة. وفي اليوم التالي، نزلت من إحدى عربات "سان جيرمان" القديمة، أمام باب منزل السيد "كاردينال".



كان هنالك لوحة معلقة على الباب، تحتوي على هذا الإعلان الهام:

"السيد "كاردينال" يظل كل يوم، حتى في يوم الأحد، من منتصف الليل وحتى الساعة الرابعة، تحت تصرف ناخبيّ "ريبومون" والنواحي المجاورة لها، لتنويرهم ولكي يشرح لهم واجباتهم، وعلى الأخص حقوقهم. وكل ما يتعلق بالانتخابات النيابية، التشريعية، والانتخابات المحلية والبلدية، وغيرها."

كان هذا حسناً كبداية. قرعت الجرس، فسمعت في الحال صوتاً وهو صوت أعرفه جيداً..: "أميلي.. أميلي.. الباب يُقرع.. هنالك من يقرع الباب.." فتعالى صوت رمل الحديقة تحت أقدام مسرعة. ووجدت نفسي وجهاً لوجه أمام خادمة قصيرة القامة:

أنت قادم من أجل السياسة.. أنت ناخب؟

كلا.. كلا. إني أودّ التحدث مع السيدة "كاردينال".

وقوطعت بصوت يصيح.. فقد عرفتني السيدة "كاردينال" وأتت وهي تركض.. أي أنها على الأقل، كانت تعمل كل ما بوسعها لكي تركض.. وخصلات شعرها تتأرجح في الهواء، ونظارتها ترتفع وتهبط على أنفها، ووجهها الواسع بدا أكثر اتساعاً بتأثير الانفعال، ومن صدرها اللاهث، كانت تنطلق هذه الكلمات:

"أنت! أنت! هذا أنت!"

لم يسبق لي على ما أعتقد أن استقبلت بمثل هذا الترحيب والفرح والمحبة..

وقد أخجلني ذلك قليلاً، أما السيد "كاردينال" فكان أكثر وقاراً. وقد استقبلني على أعلى الدرج، واصطحبني عبر غرفة الانتظار، ثم فتح باباً، وبحركة مهيبة، أشار لي، قائلاً:

أدخل.. أدخل إلى الصالون.. وأستطيع القول: "إلى المعبد!"

فنظرت إليه مندهشاً بعض الشيء ورددت:

إلى المعبد؟

نعم. انظر.. معبودي!.. انظر إلى معبودي! هنالك في أعلى المدفأة.

فحاولت، أنا من جهتي، أن أنظر وأرى.. ولكن "المعبد" كان معتماً. فلمحت شيئاً أسمر اللون على المدفأة، ولكني لم أتبيّنه جيداً..

"فولتير"! هذا "فولتير" ألا تعرف هذا التمثال النصفي لفولتير؟

ويسألني عمّا إذا كنت أعرف هذا التمثال النصفي لفولتير! لأنه لا يعرف أني أنا الذي اشتريته! فقد كان صديقي "بول" في إنكلترا.. وذات صباح، تلقيت منه رسالة يقول لي فيها: "هيا! اقرأ هذه البطاقة التي أرسلتها "فيرجيني" وأجرِ اللازم، وإليك على وجه التقريب ما جاء في بطاقة "فيرجيني":

"صديقي العزيز، يقع عيد ميلاد والدي في الأسبوع المقبل. كنّا قديماً نحتفل بهذه الذكرى في عيد القديس "ميشيل" ولكنه الآن لم يعد يريد ذلك، لأنه يعتقد أن ذلك يعتبر تعلقاً بالخرافات والمعتقدات الباطلة. ولذلك فنحن نقيم هذا الاحتفال في تاريخ مولده. والأمر سيان فيما يتعلق بالهدايا.. وأنت تعرف كم هو حساس وأبيّ النفس والدي، فهو لا يطلب شيئاً بصورة مباشرة، ولكنه يوحي لي بمهارة بما يريد، وبما يسره أن يحصل عليه. وقد أخذ يحدثني منذ أسبوعين وفي كل مناسبة عن تمثال نصفي لفولتير: "آه لقد رأيت أحد هذه التماثيل، وهو من البرونز، آه لو أني أستطيع الحصول عليه" و"فولتير" كما تعلم هو معبودة. لذلك أرجو منك أن تكتب لأحد أصدقائك المقيمين هناك لكي يشتري التمثال ويرسله إلى منزلنا، على ألاّ يخطئ في ذلك.. فهو تمثال منحني الرأس، وعلى فمه ابتسامة.. وأبي يقول إنها بالضبط ابتسامة "فولتير".. ولكن لا ينبغي أن يرتكب البائع حماقة كما حدث معنا، السنة الماضية، بشأن مفروشات الصالون.. وأنت تذكر أنهم جلبوها مع بطاقة وفاتورة حساب باسمك... ومع ذلك، فقد احتفظ أبي

بالمفروشات، ولكنه ظلّ طيلة أسبوعين يعاني من سخط مكتوم، لا يكلّمني ولا يكلّم أمي. لذلك أرجو أن يتم إرسال التمثال، دون أن يُرفق بأية بطاقة أو فاتورة حساب".

وها نحن الثلاثة الآن، نجلس حول المدفأة: السيدة كاردينال، السيد كاردينال وأنا، تحت رئاسة ورعاية السيد "فولتير".

وأخذنا نتحدث، ولكن ذلك الحديث لم يكن يعنيني ولا يفيدني بشيء. فهو لم يكن سوى "مونولوج" يردّده السيد "كاردينال" بمفرده: إنه مهتم بخدمة بلده، وسيفعل ذلك بكل قواه.. وهو يعترف أنّ باريس كانت مسرحاً أوسع ممّا ينبغي بالنسبة له.. ولكنه، سبق له أن قدم خدمات هامة وكثيرة، هنا في "ريبومون" وسيقدم أيضاً في المستقبل مزيداً من هذه الخدمات.. وهو يتعامل مع أناس متخلفين، ذوي عقول ضيقة الأفق. وهو يعترف أنهم طيبون، ولكنهم مساكين.. فهم منصرفون بكلّيتهم للاهتمام بحقولهم وبكرومهم.. وكان بإمكانه التغلب على هذه البلادة واللامبالاة، وهو الرائد الماهر في الانتخابات العامة، وأنه بإمكانه أن يحقق المعجزات..الخ. الخ..

وظلّ يتابع ويتابع.. واستمر ذلك أكثر من ربع ساعة وبدأت أشعر بالندم لقيامي بهذه الرحلة إلى "ريبومون" لأنّ ما كنت بحاجة إليه، هو حديث بسيط ومختصر نجريه على انفراد، أنا والسيدة "كاردينال".

ولحسن الحظ فقد قرع الجرس فجأة، بينما كان السيد "كاردينال" مسترسلاً في "مونولوجه". عند ذلك رفع رأسه، وأخذ

يصغي.. وبرقت عيناه.. لقد شعر بأن هنالك أمراً هاماً.. فماذا لو كان القادم أحد الناخبين..؟ لقد كان أحدهم بالفعل! وأدخلته الخادمة إلى الصالون. كان شنيع المظهر، هذا الناخب: حذاء ضخم رث ومهترئ، معطف مرقّع، قبعة رخوة، ربطة عنق ملتفة ورفيعة كالحبل، شارب مدهون وملمّع.. وباختصار، فقد بدا شنيعاً كريهاً!

واندفع السيد "كاردينال" بسرعة:

أترغب بأن تتحدث إليّ يا صديقي؟

نعم، في موضوع قيدي الانتخابي.. تصوّر أنهم يريدون شطب اسمي بسبب حكمٍ لعين بغرامة لا تتعدّى الأربعة فلوس..

تعال يا صديقي، تعال، ولنذهب إلى مكتبي..

ودخل السيد "كاردينال" إلى مكتبه، بعد أن أدخل قبله زبونه الظريف، مبدياً له كل الاحترام.

❖ ❖ ❖

الآن وقد أصبحت وحدي مع السيدة "كاردينال"، فلم أكن بحاجة لأن أمسّ النابض كي تبدأ الآلة عملها: فقد تدفّقت الكلمات بصورة تلقائية، غزيرة وساذجة، من بين شفتي السيدة "كاردينال":

كم أنا مسرورة برؤيتك.. آخ! إنك تذكرني بزمن ! وأي زمن؟ لقد كان زمناً سعيداً!..: دار الأوبيرا.. شرفة السيدة "مونج"، درس السيدة "دومينيك".. وكل هذا قد انتهى وولّى الآن.. وكان علينا أن نهجر المدينة لنقيم في الريف.. لقد أقدمت على التضحية، يا سيدي

العزيز، نعم ضحيّت بنفسي فعلاً.. وأنت تعلم ماذا حدث في عهد الحكومة الثورية "كومونة باريس".. كان السيد "كاردينال" قد قبل منصباً في القضاء.. وألقي عليه القبض.. وكادوا يزجّون به في السجن.. فذهب المركيز لمقابلة السيد "تيير".. وأعاد لنا السيد "كاردينال" سالماً معافى. ولكن الناس في "باتينيول" بدؤوا يتساءلون كيف استطاع السيد "كاردينال" استعادة حريته.. وهكذا فقد اكتشفوا الحقيقة: "ابنته خليلة مركيز! وهذا المركيز هو أحد أصدقاء السيد "تيير"! وهكذا فقد افتضح السيد "كاردينال" على الفور في "باتينيول".. وأخذ الناس يديرون له ظهورهم. ويوجهون له الإهانة تلو الإهانة.. ولم يؤثر ذلك على قناعات السيد "كاردينال" ولم يزعزعها، ولكنه كان يغيظه ويحزنه.. وعند ذلك أخذ يفكر بالرحيل إلى الريف، ويتحدث عنه.. فهنالك حقائق مفيدة ينبغي أن تنشر في أوساط سكان الريف.. ونشر الحقائق كان على الدوام، يعتبر ولعاً حقيقياً لدى السيد "كاردينال" وكثيراً ما كان يقول: "إن في داخلي رسولاً، وأنا بحاجة لنشر الحقائق.." وبطبيعة الحال، فإني لست بحاجة لأن ألحّ على ذلك، فأنت تعرف جيداً طباع السيد "كاردينال".

نعم، إني أعرفها يا سيدة "كاردينال" وأعرفها جيداً.

وبالإضافة إلى ذلك، كان هنالك أمر آخر، هنالك حالة الحصار، والأحكام العرفية في باريس، وكان السيد "كاردينال" يكاد يموت غيظاً من تلك الحالة، وكان يردّد على الدوام: "إني أختنق، أختنق في هذا الحصار.. وأشعر بثقل كبير يجثم على صدري..

ولا أدري ماذا تفعلون لكي تتنفسوا، فأنا لا أستطيع أن أتنفس، لا أستطيع!" وكل مساء في موعد مرور الدورية، يتعرض لنوبة مرعبة.. وأنت تعلم، أنه في الزمن الذي تلا حكم "الكومونة" كانت هنالك دوريات من الخيالة تجوب الشوارع، وفي حيّ "باتينول" كان هؤلاء الخيالة يحملون دروعاً.

وفي الساعة التاسعة إلاّ ربع، كل مساء، وبصورة منتظمة، كانوا يمرّون تحت نوافذها.

ومنذ الساعة الثامنة والنصف، يستولي القلق والاضطراب على السيد "كاردينال"... كان يشعر بقرب قدوم الدورية. وكنت أقول له: "إذا كان مرور هؤلاء الجنود يزعجك إلى هذا الحدّ، فلماذا تبقى هنا؟ اذهب إلى مقهاك الصغير. "فكان يجيبني: "كلا، كلا، لأني عند ذلك يمكن أن التقي بهم، ولا أعرف ماذا يمكن أن يحدث ... وعلاوة على ذلك، فهذا أفضل، لأنه يغذي غضبي، ويزيد من قوته."

ويبقى ... وعندما، يرتفع صوت حوافر الخيل: "توك، توك" تحت نوافذها، يشحب وجه السيد "كاردينال"، ويصمت تماماً، فلا ينبس ببنت شفة. وكان يقترب من النافذة، أحياناً، ويقول: "إنهم شاهرو السيوف! إنهم شاهرو السيوف!"

وفي وسط كل هذا، كان الرجل المسكين يعيش حياة هزيلة.. أما أنا، فكنت لا أزال أستطيع تدبير أموري، كانت لديّ دار الأوبيرا، وكانت لدي "بولين"..

حقاً!؟ "بولين"، هيا، حدثيني قليلاً عن "بولين".

نعم، سأحدثك عنها، ولكنّ حديثي موجه لك، ولك وحدك. فهنالك جرح في عائلتنا، وهذا الجرح هو "بولين" كانت تثير قلقي "بولين" هذه.. فهي، أولاً، لم تكن تهتم ولا تتدرب على رقصاتها، وعندما لا تهتم الراقصة برقصاتها ولا تتدرب عليها، فهذا أمر سيء، لأنه يشير إلى أنها تفكر بأمور أخرى.. ثم إنّ هذا لم يكن من طبيعة "فيرجيني".. التي كانت واثقة جداً من نفسها ومن ذويها. "فيرجيني" الحنونة جداً، واللطيفة مع أمها.. والتي كانت تستشيرني بكل شيء.

أما "بولين" فكانت على النقيض من ذلك: فهي تتهرب مني على الدوام، وتكتم عني كل شيء، فلا تبوح لي بما يراودها من آمال وبما تفكر به بشأن مستقبلها، كما تفعل الفتيات عادة حيال أمهاتهنّ. وكنت أقوم جيداً بواجب السّهر والحراسة، ولكّن الفتيات كما تعلم، عندما يسرن في طريق الضياع، فإن الأم الأكثر حرصاً ويقظة لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال ذلك. وكنت دائماً أرى في الكواليس شاباً صغيراً يحوم ويدور ويحوم حول "بولين". فسألتها عن هذا الشاب، وقالت لي:

"انه شاب طيب جداً، يشغل مركزاً جيداً، فهو سكرتير أحد الوزراء."

"سكرتير أحد الوزراء!؟..أهذا مركز جيد، في بلاد يتساقط فيها الوزراء أنفسهم، كما يتساقط ورق اللعب، عندما يلقي اللاعبون!؟.. وأخيراً، هاهي "بولين" تبوح لي، ذات يوم، قائلة أنها تحب هذا الشاب الأفاق.. وتحبه حب العبادة.. وتموت ولهاً، وولعاً به.. وأنها،

بدافع الحب، ستستسلم له.. فماذا أقول؟

هذا بالإضافة إلى أنّ هنالك أمراً أخيراً. وهو أنّ "بولين" تعرف آراء السيد "كاردينال" السياسية. وهكذا فانّ والدها كان يمكن أن يصفح عنها.. نعم، ويغفر لها كل شيء.. فيما عدا علاقتها بأحد موظفي حكومة السيد "ماكماهون".. وتحدثت مطولاً مع "بولين" وأفهمتها أني لا أقبل منها أن تكلم بعد الآن سكرتير الوزير، ذلك المهرج الأفّاق. فتظاهرت بأنها ستنصاع لنصيحتي. وفي المساء، أتدري ماذا حدث في المساء، يا سيدي العزيز؟ أتدري؟

أشك بذلك، يا سيدة "كاردينال".

في المساء – كانت تمثل مسرحية "روبير" وقد تسلّلت من بين يدي، بعد رقصة باليه "الراهبات". ونزل الجميع.. ولكن أين "بولين"؟ لم تكن هنالك أبداً..

ولم أكن أعرف أين يقيم ذلك المهرج الأفّاق. ولولا ذلك، لأسرعت إليه، واستعدت ابنتي. ولم أكن أستطيع أن أذهب وأقرع أبواب جميع الوزارات، وأسأل البواب:

"أيمكن أن يكون، بالمصادفة، هذا الشاب سكرتير وزيركم؟.. فعدت إلى البيت، فاصفر وجه السيد كاردينال، عندما رآني أعود بمفردي. فجثوت عند ركبتيه: "أصفح عني، يا سيد كاردينال، اصفح عني.. فقد تصرفت كأم سيئة، وقد قصرت بواجب السهر والمراقبة."

فساعدني على النهوض ثمّ قبّلني، وأخذنا نبكي سوية.. إنه يبدو مدهشاً في مثل هذه الظروف، السيد كاردينال..

وعادت في اليوم التالي، البائسة الصغيرة، وغلب علينا الضعف، فصفحنا عنها. ولكن كما ترى، فعندما ترتكب فتاة عملاً كهذا، يسيء إلى أهلها، فهل يمكن أن يثقوا بها بعد ذلك؟.. وكان السيد "كاردينال" يقول لي، بلهجة تنم عن الحزن: "أترين، يا سيدة "كاردينال"؟ إنّ هذه البنت ستهرب منّا، ولن تبقى معنا لتخدمنا وترعانا في شيخوختنا.. إنها لن تكون كفيرجيني!" آه! "فيرجيني!" يا لها من ملاك! سأحدثك عنها بعد قليل، بعد أن أنهي لك حديثي عن "بولين" ولن يطول ذلك.. فقد هجرت "بولين" الرقص، وأصبح لديها قصر، خيل وعربات، ولكنها نسيت والديها. ولم أطلب منها سوى أمر واحد، وقلت لها: "اسمعي، إنّ لوالديك مستقبلاً.. ولذلك، فإني أتوسل إليك بألاّ تلوثي اسم "كاردينال".. غيّري كنيتك."

فأجابتني: "لقد فعلت ذلك منذ أكثر من شهر، يا أمي.. فلم يكن في هذا الاسم أيّ شيء من الكياسة والظرف: "بولين كاردينال".. فأنا الآن أدعى "بولين دوجيرالداس."

وهل السيدة "دوجيرالداس" هي "بولين"؟ نعم، هي بعينها. ومركيزة "كفالكانتي" هي ملاكي، هي ابنتي "فيرجيني".. لقد تزوّجها، يا سيدي العزيز، نعم تزوّجها.. وهي تسكن قصراً في "فلورنسا".. وهي تحافظ على مستوى طبقتها.. وتستقبل في كل مكان.. وتفرض احترامها.. ولم تتخذ لها عشيقاً. وقد ذهبنا إلى زيارتها

في فلورنسا أنا والسيد "كاردينال". وأمضينا ثمانية أيام في قصرها.. وكان المركيز رائعاً في معاملته لنا.. فقد غمرنا بالهدايا.. وكان السيد "كاردينال" يقول لي: "تسرني هذه الهدايا التي أستطيع قبولها، ورأسي مرفوع.. إنها هدايا مقدمة من صهرٍ حقيقي.. ثم أنّ هذا الرجل، رغم الهوّة السياسية التي تفصل أحدنا عن الآخر، ابن أصل، وعلي أن أعترف بذلك وهو يجيد العطاء، ويكثر منه."

وكان ينبغي أن نعود مباشرة إلى باريس. ولكنّ السيد "كاردينال" غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة، وقال لي: "ما رأيك يا سيدة كاردينال بأن نتابع رحلتنا إلى روما؟

إلى روما، يا سيد كاردينال؟ ولكن، عليك أن تأخذ حذرك، يا سيد كاردينال، فهذه مدينة الكهنة والرهبان.. وهل يمكنك أن تشاهدهم وأنت مطمئن، مرتاح البال؟!

نعم يا سيدة كاردينال، أريد زيارة عرين الخرافات والمعتقدات الباطلة، هذا ...

وتابعنا رحلتنا إلى روما.. وفي طريقنا إليها، ظل السيد "كاردينال" يقول لي: "روما، هذه، يا سيدة كاردينال، لن تثير لديّ أية حماسة، وسأشاهدها بمنتهى البرود" وبالفعل فقد ظل بارداً حيالها.. وشاهدنا كل ما يمكن أن يشاهد هناك، فيما عدا ما كان في داخل الكنائس، لأنّ السيد كاردينال لم يكن يشأ أن يضع رجله هناك، وفي كل مكان ظل يردّد العبارة نفسها: "هذا مبالغ فيه، هذا فيه كثير من المغالاة!"

كانت روما تغيظه بكنائسها وأديرتها الكثيرة، وكان يقول لي: "إنها مدينة ميتة، يا سيدة "كاردينال" مدينة يجب أن تزول عن سطح الكرة الأرضية.. اسمعي: أنا لا أعرف "شيكاغو".. ولكني أفضل "شيكاغو".. فهي على الأقل، مدينة حية، "شيكاغو"!.

وبعد ثلاثة أيام، كان السيد "كاردينال" قد ملّ، وشاهد بما فيه الكفاية.. وأخذ يجد صعوبة باستنشاق ذلك الهواء.. وكان ذلك يحدث لديه أزمات وضيق صدر.. وهكذا كنّا نهمّ بتهيئة حقائبنا، عندما انتحى بنا أحد خدم الفندق جانباً وقال لنا:

"سيعقد صاحب القداسة جلسة اليوم في الساعة الرابعة، ولديّ بطاقتان للدخول إلى تلك الجلسة.. فهل تريدانها؟"

فأجبته: "لو أنك، يا صديقي، تعرف السيد كاردينال جيداً، لما تقدمت بعرض كهذا"

ولكنّ السيد "كاردينال" قاطعني، قائلاً: "عفواً، يا سيدة كاردينال، عفواً. ما كنت لأبحث عن هذا اللقاء، ولكنّ الفرصة قد سنحت.. فسنذهب إلى الفاتيكان." وذهبنا إلى هناك.. وأنا، من جهتي، لم أكن مستاءة من مشاهدته، ولكني كنت قلقة بشأن السيد "كاردينال". وقد وعدني بأنه سيظل هادئاً، وسيتمالك نفسه، ولكني أعرف عنف وحدة طبعه، كما أعرف أنّ البابا هو عدوه اللدود، وأنه يكرهه كثيراً.. ووصلنا إلى الفاتيكان، فأدخلونا إلى قاعة جميلة وأفهمونا أنّ علينا أن نجثو على ركبنا عندما يعلنون عن وصول "قداسته" السيد "كاردينال" يجثو على ركبته؟! ... فقلت في

سرّي: "ماذا سيحدث؟ فمن غير الممكن أن يقبل السيد كاردينال بأن يجثو أمام مخلوق بشري." وفتح الباب.. وأعلن عن وصول "قداسته".. فجثا السيد "كاردينال" على ركبتيه.. وأنا، عند ذلك، لم أفهم كيف حصل ذلك.. واقترب البابا منه.. آه! عجباً يا إلهي! يا لها من لحظة!.. وماذا تريد أن أقول لك؟ لقد كنت متديّنة في طفولتي.. وربما كان قد بقي لديّ شيء من تلك الصفة حتى اليوم، لولا السيد "كاردينال".. وعلاوة على ذلك، فنحن النساء ضعيفات.. وأخيراً، فقد اضطربت من شدة التأثر والانفعال.. واغرورقت عيناي بالدموع.. وخيّل لي أني أتناول القربان المقدّس لأول مرة في حياتي.. ولكن، فجأة، وفي اللحظة التي كان يمر فيها البابا من أمامنا، رأيت السيد "كاردينال" ينهض واقفاً، ودون أن يؤدي التحية، يحدق بكبرياء في عيني البابا، كرجل يحدّق في عيني رجل آخر..

❖ ❖ ❖

في تلك اللحظة، فتح باب مكتب السيد "كاردينال".. وبدا الناخب.. كان قد وضع قبعته الرخوة على رأسه.. وأخرج من جيبه كيساً قديماً من المطاط، مملوءاً بالتبغ، وأخذ يحشو غليونه. وكانت تفوح منه رائحة غريبة، هي مزيج من رائحة الكحول ورائحة التبغ.

ورافقه السيد "كاردينال" بكل مجاملة وتقدير، وهو يودّعه بتواضع، قائلاً له:

أنا في خدمتك، يا صديقي، في خدمتك، على الدوام.



السيدة "كانيفيه"

بعد خمس سنوات، وفي دار الأوبرا، أيضاً، يوم الجمعة الواقع في ٢٨ أيار (مايو) سنة ١٨٨٠، حوالي الساعة العاشرة مساءاً.. لأنه يجب توخّي الدقة عندما يتعلق الأمر بمواضيع لها مثل هذه الأهمية.. كنت قد ذهبت بين الفصل الثاني والثالث من مسرحية "عايدة" لأتحدث قليلاً مع صديقتي القديمة السيدة "س". وقبل دخولي إلى الشرفة، كنت قد سلمت معطفي إلى العاملة، ولكن دون أن أعير أي انتباه لوجه تلك الإنسانة الظريفة.

وعندما انتهت زيارتي، خرجت من الشرفة، وهاهي السيدة الطيبة تقول لي وهي تساعدني على ارتداء معطفي: هل السيد مازال بصحة جيدة وعلى ما يرام، منذ زيارته القصيرة لي، التي مضى عليها ثلاث أو أربع سنوات؟ ...

زيارة! أية زيارة؟

بلى، يا سيدي! هناك في الطابق العلوي.. كنت أعمل في الطابق

الرابع، وأتيت لتسألني عن أخبار عائلة "كاردينال".. أنا السيدة "كانيفيه".

السيدة "كانيفيه"!.. آه! وعلى الفور تذكرتها.. أنها السيدة "كانيفيه" التي أعطتني، مساء اليوم الذي أعيد فيه تقديم مسرحية "دون جوان"، معلومات عن عائلة "كاردينال" وروت لي بعض أخبار هذه العائلة. والنزول إلى شرفات الطابق الثالث كان يشكل آنذاك كل ما تطمح إليه السيدة "كانيفيه".. ويبدو أنها قد تحقق لها أكثر مما كانت تطمح إليه.. فقد وجدتها في شرفات الطابق الأول. وهنأتها على ذلك.

فأجابتني:

آه، سأروي لك كيف حصل هذا:

إني أعمل كبوابة في إحدى مباني حي "المادلين". وأنت تعلم كم تبدل وزراء في تلك الفترة، وأخيراً حصلت على أحدهم، عندما أتى وسكن في ذلك المبنى.. فتكلّم مع السيد "فوكوربي" بشأني، عند ذلك أنزلوني إلى شرفات الطابق الأول.

فهنأت السيدة "كانيفيه" مرة أخرى، وانتهزت الفرصة لأسألها عن أخبار السيدة "كاردينال".

السيدة "كاردينال".. أوه! إنها بخير، تلك السيدة العزيزة.. مازالت تقيم في الريف، هي وزوجها، ولكنها حزينة وقلقة بعض الشيء.. لأنّ ما حصل يكاد لا يصدق تصور أن السيد "كاردينال" لم يحصل للآن لا على منصب ولا على وظيفة.

لم يحصل على وظيفة؟

ولا على أقل عمل! فقد تلقيت رسالة من السيدة "كاردينال" الأسبوع الماضي تقول لي فيها إنّ السيد "كاردينال" المسكين، يائس جداً، وقد انهارت معنوياته، لدرجة أنه أخذ يتحدث عن نيته بالتخلي عن العمل بالسياسة.

أوه! وهل تكتب لك السيدة "كاردينال" كثيراً من الرسائل، وبشكل مستمر؟

نعم إنها تراسلني بشكل دائم.

وهل تحتفظين برسائلها؟

بكل عناية وورع، يا سيدي، فرسائلها هامة جداً ومؤثرة جداً.. إنها امرأة مدهشة، تثير الإعجاب، امرأة لم تعرف طيلة حياتها سوى أمرين: زوجها وواجباتها.

أعرف كل هذا، أعرفه جيداً.. وأنا أكنّ للسيدة "كاردينال" مزيداً من العطف والمحبة.

وهي أيضاً تكنّ لك مثل هذا الشعور.. خذ مثلاً، في رسالتها الأخيرة، هي تقول لي: "الآن، وقد نزلت إلى شرفات الطابق الأول، لابدّ أنك أصبحت ترين كثيراً أولئك السادة.. اقرئيهم تحياتي.."

وقد ذكرتك بالاسم، بين أول من ذكرتهم..

لقد تأثرت، تأثرت كثيراً.. ويمكنني أن أقرأ بمزيد من السرور هذه الرسالة التي أرسلتها لك السيدة "كاردينال" ..

هـذه الرسـالة، والرسـائل الأخـرى، إذا كـان سيسـرك ذلـك.. وسـأجلبها لـك بعد غـد، في المساء وفي اليوم الموعود، سرني أني تلقيت من يدي السيدة "كانيفيه" ثلاثين أو أربعين رسالة من رسائل السيدة "كاردينال".. ولكـن اطمئنوا.. فأنا لا أنوي نشر هذه الرسائل كلها.. أربعة منها تكفي.. وهـذه الرسائل الأربع ، سأنقلها حـرفياً، وبكـل أمانة، دون أن أضيف أو أن أحـذف كلمة واحدة. وكـل ما فعلته هو أنـي صححت أخطـاء الإمـلاء. علماً بـأني فكـرت في بداية الأمـر أن أتـركها على حالها وكما هي، ولكني وجدتها كثيرة جداً، وأكثر مما ينبغي.

وهـذه الرسائل تروي قصة، بل تـاريخ عائلة "كاردينـال" خـلال السنوات الأربع الماضية، وتروي في آن واحد، وبصورة غير مباشرة، جانباً من تاريخنا، كلنا، نحن الفرنسيين.

ايار (مايو) ١٨٨٠



برنامج السيد "كاردينال"

"ريبومون" ٢٥ نوفمبر
"تشرين الثاني" ١٨٧٧

تسـأليني عـن أخبارنا كلنا ، يـا صـديقتي العزيـزة.. إنهـا جيـدة وليسـت جيـدة ، هـذه الأخبـار.. فبالنسبة للصحة ، الجميع بخير وعلى ما يـرام. "فيرجيـني" في "فلورنسـا".. ، "بولـين" في بـاريس. وأنـا والسـيد "كاردينال" هـنا ، في الريف.. لكن ، واحسرتاه! جميعنا بصحة جيدة ، وكل منا في جهة فنحن لم نتمتع بمباهج وحميمية الحياة العائلية.. آه! إنـه لأمـر عسـير أن تمضـي إحدانا حياتها كلها بتأدية واجباتها العائلية والمنـزلية ، وألاّ تكون قد أحبت طيلة هـذه الحيـاة سـوى شـيء واحـد : بيت أسرتها ، وأن تشعر في الوقت نفسه أنها زوجة وأم ، قائلة في سرها : لـديّ ابنتان ، ولكنهما ليسـتا هـنا ، ولـن تكونـا أبـداً هـنا ، لمسـاعدتي ورعايتي في شيخوختي.

"فيرجيـني" الـتي تـزوجت المركيـز ، "فيرجيـني" الـتي أصـبحت

مركيزة، بحق وحقيق، تظلّ باستمرار زينة المجتمع الراقي الإيطالي..
آه! يا ظبيتي الصغيرة المسكينة، كل هذه الأبّهة لم تسلب لبها. وقد كتبت لي، في الأسبوع الماضي، بأنها هناك ملكة جميع الحفلات والأعياد، والمناسبات السعيدة، وأنّ كل هذا لا يساوي شيئاً، فهي ليست مسرورة طيلة الوقت لكونها مركيزة في "فلورنسا" وأنها في بعض الأوقات تفتقد أسرتها وتأسف لفراقها عندما تتذكر حي "باتينيول" ودار الأوبيرا.

إنها ملاك! لقد خصصت لنا راتباً قدره ستة آلاف فرنك..
وتحدثني كثيراً عن نيتها الحضور لزيارتنا في فرنسا، ولكن رغم أن قلبي، كأم، ينزف دوماً لفراقها، فإني أجد لديّ الشجاعة الكافية لكي أثنيها عن عزمها الحضور لزيارتنا: لأني لم أعد أجرؤ على جعل المركيز يقابل السيد "كاردينال". فأنت تعلمين أنّ هنالك هوّة تفصل بينهما على الصعيد السياسي، ولكن، رغم ذلك، فإنّ كلاً منهما يكنّ للآخر بعض التقدير، فهما يتلاسنان ويتشاتمان ويظل، مع ذلك، كل منهما يقدّر الآخر.. وإذا تركنا السياسة جانباً، فإنّ علاقتهما ودّية، بل وحميمة تقريباً.. ولكن، للأسف، لم تعد هذه العلاقات كما كانت فيما مضى، بعد ذلك الحادث الذي حصل في روما سنة (١٨٧٥) بين البابا والسيد "كاردينال".. وقد سبق أن حدثتك عنه.. ففي إحدى الجلسات التي أقيمت في الفاتيكان، رفض السيد "كاردينال" أن ينحني أمام البابا، وحدّق في عينه وجهاً لوجه، دون أن يرف له جفن، أو أن يتحرك من مكانه.

وعلم القصر الملكي في روما أنّ السيد "كاردينال" هو حمو "والد زوجة" المركيز. فكتبوا من روما إلى المركيز، ومن فلورنسا، كتب المركيز للسيد "كاردينال" رسالة شديدة اللهجة، فردّ عليها السيد "كاردينال" برسالة أشد منها لهجة وحدة. ومنذ ذلك الحين انقطعت جميع العلاقات بينهما، طبعاً فيما عدا راتب الستة آلاف فرنك، الذي كان قد تضمنه عقد زواج المركيز بفيرجيني.

أما "بولين" فقد بدأت أحوالها تسير من سيئ إلى أسوأ.. وهي تحمل الآن اسم "مدام جيرالداس" وتتابع حياة البذخ والترف.

وفي معظم الأحيان، عندما يطالع السيد "كاردينال" الصحف، ألاحظ أنّ وجهه يتجهم، وتبدو عليه بعض التقلّصات فأدرك سبب ذلك.. فالأمر يتعلق بقصر، أو بزينة السيدة "جيرالداس" أو بعربتها وخدمها وحشمها.. و"بولين" غنية جداً، وسعيدة، و"بولين" ليست بحاجة لأمها.. أو بالأحرى، هي تعتقد أنها ليست بحاجة لها.. وخاصة لأنها في وضعها الحالي.

وقد ذهبت خفية ثلاث أو أربع مرات لأراها في قصرها، الكائن في شارع "كيبلر" آه! ياله من ترف، يا عزيزتي، ياله من ترف! ومن وجهة نظر معينة، يمكن أن يجعل الأم تزهو وتفتخر عندما ترى ابنتها تتمتع بهذا الترف وهذا الغنى.. لديها أحد عشر خادماً، نعم.. أحد عشر.. سائق عربة نهاري، وسائق عربة ليلي، وصيفة أولى ووصيفة ثانية، رئيس خدم، رئيس طباخين، خادمة مطبخ، خادم لإدخال الضيوف، سائسة للخيل، مرافق لها عندما تتريض ممتطية أحد

الأحصنة.. وكل هؤلاء يرتدون الملابس الأنيقة والزاهية، بشكل منسّق وغير مبتذل. إنهم خدم حقيقيون في بيت كبير.. ولكن، من جهة أخرى كم يكلف هذا؟! يجب أن ترى كيف يسرقها وينهبها هؤلاء الناس كلهم. فقد ألقيت نظرة على دفتر الطباخ، أنا التي أعرف أسعار جميع المواد، فأخذت أرتجف عند ذلك.

وتحدثت بهذا الشأن مع السيد "كاردينال" وقلت له، ذات يوم:

أسمع.. يا سيد كاردينال.. هنالك تبذير مريع في منزل "بولين".. دعني أذهب مرة كل أسبوع إلى باريس.. إنّ مهمة الأم، هي بالدرجة الأولى، السهر على ابنتها، ومنع الناس من أن يغشوها ويسرقوها.

عند ذلك أصبح وجه السيد كاردينال أبيض كالثلج، ونهض.. ودون أن يتلفظ بكلمة، ذهب ففتح الباب بكل برود. وهو يجعلني أرتجف في مثل هذه الموقف، فهو يتمتع بكثير من المهابة، وبالطبع المسرحي.. وبعد أن فتح الباب، تراجع خطوتين، وبحركة مسرحية ومأساوية، قال لي:

يمكنك أن تذهبي، يا سيدة "كاردينال" ولكن الوداع.. الوداع إلى الأبد!

وكما تظنين، فإني، عند ذلك، ارتميت على أحد الكراسي، وأخذ جسمي يتقلص ويتشنج، وارتفع ساقي في الهواء.. أأترك السيد "كاردينال"؟!..

أتركه في هذا الوقت، وهو، كما يقول يعدّ العدة لمعركته

الكبرى، وعندما بدأ ما يسميه مهمته التبشيرية الريفية وعندما أخذ يفني نفسه روحاً وجسداً، ويضحي بكل شيء في سبيل العدالة والحقيقة.. أأتركه، أبداً، لا يمكن أن أفعل ذلك!

آه! يا عزيزتي، إنه يعاني من صعوبات كثيرة، تأملي مهمته التبشيرية.. فهو يرى أن القرويين خاملون، لا تثيرهم ولا تهمّهم السياسة. وهو يريد أن يثير الحركة والاضطراب في الأرياف، ولكنّ هذا ليس سهلاً لأنه فيما عدا سيدة عجوز تؤيد الشرعية، ورجل عجوز آخر من أنصار الملكية، وثلاثة أو أربعة من الموظفين السابقين المؤيدين لبونابرت وللحكم الإمبراطوري، فالجميع هنا يؤيدون الجمهورية.. ولكنهم جمهوريون على طريقتهم الخاصة.. إذ إن جمهوريي الأرياف ليسوا أبداً كجمهوري "باتينول".. فهم أناس يرون الأمور لا تسير بشكل سيئ جداً، منذ أربع أو خمس سنوات، وأنّ القمح لا يزال ينبت والعنب في الكروم ينضج، وأنّ الأسعار في أسواق الخضار مناسبة وثابتة، وأنهم هادئون ومطمئنون، وعليهم أن يرضوا ويقنعوا بما لديهم، وإذا كانت هنالك حكومة، أية حكومة، فمن الأفضل الإبقاء عليها أطول مدة ممكنة.

ومنذ فترة وجيزة، قال رجل عجوز، من مالكي الكروم للسيد "كاردينال" الذي أخذ يقفز عند سماعه كلمة واحدة:

أنا، من جهتي، كنت أريد أن يدوم حكم "شارل العاشر" ولكن وددت أن يستمر حكم "لويس فيليب"، وأن يدوم حكم نابليون، والآن أتمنىّ أن يبقى الحكم الجمهوري، فأنا دائماً أؤيد

الحكم القائم، وكان من الممكن ألا أصوّت لصالح قيام الجمهورية، ولكنها وقد قامت الآن، فإني أدلي بصوتي لصالح المحافظة عليها.. وهذا هو رأيي.. فأنا على الدوام شديد الحرص على الاحتفاظ بما هو موجود.

وآراء كهذه، كانت تغيظ السيد "كاردينال" وتجعله يفقد أعصابه! لأنه على الدوام كان يؤيد الحركة.. ويقول: لا ينبغي أن تتوقف فرنسا أبداً، عليها أن تظل تسير، دائماً وأبداً. ويقول عنها إنها طليعة الأمم، ورائدة الحضارة. فأنت تعلمين يا صديقتي العزيزة، أنّ كل هذه العبارات هي من أقوال السيد "كاردينال" ولكن لكثرة ما سمعته يردّدها، فقد حفظتها عن ظهر قلب تقريباً.. لقد اشتغل كثيراً منذ أن انتقلنا إلى الريف، وأخذ يقرأ مؤلفات بعض الكتّاب والأدباء اللاتين.. باللغة الفرنسية، طبعاً.. وحقق تقديماً كبيراً في مجال الأدب والسياسة، والبلاغة. وبالأمس، قال لي: "إنني أشعر يا سيدة "كاردينال" أني أصبحت ناضجاً ومستعداً لتحمل مسؤولية الحكم".

وإذا قال ذلك، فهذا يعني أنه واقعي وحقيقي، لأنّ ليس هنالك رجل أكثر تواضعاً منه.. لو أنك تعرفين كم أصبح يجيد الكلام الآن.. وكيف يستمر في التكلم فترة طويلة.. وكم من الأمور الجميلة يقولها لي في السرّ، وكلها تضيع بالنسبة للبلاد، لأنّ لا أحد يسمعها سواي، وخلال ثلاثة أرباع الوقت، لا أفهم منها شيئاً.. والأمر الذي استغربه هو أنّ لا أحد يأتي ويقول للسيد "كاردينال": يمكنك أن تختار.. أيّ منصب تريد؟ أتريده في المالية أم في العدلية؟"

وهما الجهتان اللتان تناسبانه أكثر من أية جهة أخرى.. لقد أقمنا الحكم الجمهوري، وهذا النظام لا يوظّف السيد كاردينال! إذن ما هذه الجمهورية التي تستطيع أن تستخدم السيد "كاردينال" ولكنها مع ذلك لا تستخدمه؟ وها هو هنا، يتذمّر ويتحرّق، وقد نحل جسمه، وأصبح على استعداد لقبول أية وظيفة كانت.

ومن الصباح حتى المساء، لا يفكّر السيد "كاردينال" إلا ببلاده، بل ومن المساء حتى الصباح أيضاً، لأنه كثيراً ما يستيقظ في الليل، وينصرف إلى التفكير بأمور البلاد. عند ذلك أسمع فجأة عبر الظلام الذي يكتنف الغرفة، صوتاً يقول لي: "أشعلي الشمعة يا سيدة "كاردينال" أشعليها". ذلك لأنه تكون قد خطرت له فكرة تتعلق بالإصلاح، أو بالتقدم.. ويخشى أن ينساها.. لذلك فهو يريد أن يسجلها في الحال.. ولأني قريبة من الكبريتة، فإني أشعل بسرعة وأناوله دفتره الصغير، وقلمه الصغير أيضاً، فيكتب في عز الليل، من أجل بلاده.

خذي! هذه الليلة، مثلاً، أشعلت الشمعة ثلاث مرات، من أجل ثلاث فكرات مختلفة خطرت على بال السيد "كاردينال": الأولى عن الخمول في الأرياف، الثانية عن "فولتير" والثالثة عن ديانة علمانية تماماً.. وعندما لا تشتعل أعواد الثقاب جيداً، يغضب السيد "كاردينال" ويصرخ:

إنهم يفعلون هذا عمداً، هؤلاء الناس، جماعة وسط اليسار، أنصار الملكية وأتباع آل "أورليان" الذين لا يزالون في السلطة ويشاركون في الحكم، يفعلون ذلك لكي يسيؤوا للجمهورية،

ويفقدون النظام الجمهوري اعتباره وهيبته.. عندما يعتقد البعض أنّ كبريت الجمهورية سيئ، ولا يساوي من حيث النوعية كبريت الملكية!

ومسألة الكبريت هذه، لها أهمية كبيرة في الأرياف. وبالأمس قال للسيد "كاردينال" أحد أنصار الحكم "البونابرتي" في إحدى القرى المجاورة: "إنّ جمهوريتكم لا تعرف أن تصنع شيئاً، حتى الكبريت فهي لا تجيد صنعه".

فأجابه السيد "كاردينال": "هذا الكبريت الذي تتحدث عنه ليس كبريت جمهوريتنا، إنه كبريت السيد "ماكماهون" فهو لديه دائماً، ردود جاهزة وسريعة تأتيه عفو الخاطر وبسرعة، دون أن يبحث عنها أو أن يفكر فيها.

وقد سبق وقلت لك، إنني قلقة ومنذهلة لأنهم لم يوظّفوا السيد "كاردينال". أمّا هو فإن هذا لا يدهشه، وبالأمس قال لي:

إذا كانوا لا يأتون إلي، يا سيدة "كاردينال" فذلك لأن الجمهورية الحالية ليست الجمهورية الحقيقية.. فالجمهورية الحقيقية، هي الحركة، الصخب، الهياج، والاضطراب.

وقد قام السيد "كاردينال" بكثير من الأبحاث التاريخية في الفترة الأخيرة، وهو يقول إنّ التاريخ منجم عظيم، نجد فيه كثيراً من الأشياء المدهشة. فقد اكتشف أنه كان هنالك في قديم الزمان جمهوريات صاخبة ومضطربة، يعيش الناس فيها في الخارج على الدوام: في الشوارع، في الساحات العامة، وأنه كان هنالك بشكل

مستمر، نشاط وهياج في.. في.. وهو يستخدم هنا كلمة لاتينية صعبة، لا أستطيع أن أتذكرها أبداً. فذهبت وسألته عنها، فهجّأها لي.. وإليك الكلمة: *(Forum) (F.. O..FO.. RUM)*[1] وهي تلفظ مثل كلمة *(RHUM)* الشراب المسكر، ولكنها لا تكتب مثلها.

وكان السيد "كاردينال" يقول هنا كل هذا للناس، وليتك كنت تسمعينه وهو يتحدث إلى القرويين.. فقد كان مدهشاً ومثيراً للإعجاب! ففي كل يوم، من الظهر، وحتى الساعة الرابعة، كيفما كانت حالة الطقس: مطراً أوشمساً حارة، يذهب ليتجول في الريف. يتوقف بالقرب من القرويين، يتحدث معهم، ولكنه لا يكلمهم بلغته المعتادة.. لأنها صعبة بالنسبة لهم، ولا يمكن أن يفهموها.. ولذلك فهو يتواضع وينزل إلى مستواهم.

وإليك ما حدث مرة: لقد اصطحبني معه يوم الثلاثاء الماضي. فتوقفنا بجانب قرويّ كان يحفر حقله.. فأخذ السيد "كاردينال" يتحدث معه:

"إيه يا صديقي، أسعدت صباحاً!

أسعدت صباحاً، يا سيد "كاردينال"!

هاأنت تحرك تراب حقلك.

نعم، كما ترى.

---

[1] (forum): ساحة في روما، كان يجتمع فيها الشعب، وكانت مركزاً دينياً، تجارياً وقضائياً في آن واحد. ومركزاً لمناقشة الشؤون الخاصة وشؤون الحياة العامة. (المترجم).

وإذا لم تحفر الأرض وتحرك ترابها، ماذا يمكن أن يحصل؟

يا للعجب! إنّ ما يحصل هو أنها لا يمكن أن تنتج شيئاً!

هاك ما أردت أن أوضحه وأن أوصلك إليه..

فالبلاد هي كحقلك هذا، .. بحاجة للتحريك، وللتحريك بشكل دائم.

آه! كلا، ليس الأمر سيّان، فتراب حقلي بحاجة للحفر وللتحريك ولكنّ البلاد بحاجة للهدوء والاستقرار.

وهؤلاء هم القرويون، وتلك هي أحوالهم.. إنهم يتمّسكون بنمط حياتهم وبتقاليدهم البالية.. ولكنّ السيد "كاردينال" لم يكن ييأس، ولم يكن كل هذا يضعف عزيمته. فهو يقول دائماً إنه سيتوصل في نهاية المطاف إلى تحريك مقاطعة *(seine- et- Qise)*. وبانتظار ذلك، فهو يحركني، أنا.. إذ إن كل هذه السياسة تضطرب في رأسي وتؤلمه.. وبدأت أعتقد أني أصبحت أفهم شيئاً منها.. فأنا، أطالع الآن بعض الصحف السياسية، بينما كنت، في الماضي، كما تعلمين، لا أطالع سوى الروايات، وقصص الجرائم والحوادث، التي تنشرها "الصحيفة الصغيرة" التي كنت أطالعها على الدوام.. وهنالك أيضاً أمر آخر يشغل بال السيد "كاردينال": وهي الذكرى المئوية لوفاة "فولتير".. التي تحلّ في الثلاثين من أيار (مايو) السنة القادمة، ولكنه بدأ يستعدّ لها منذ الآن. وهو يريد أن يلقي محاضرة، هنا، في "ريبومون". ويقول إنّ عنوان محاضرته، سيكون: "الإله فولتير".

والسيد "كاردينال" أصبح يحفظ منذ الآن مطلعها ويعرف كيف سيبدؤها، وليتك ترين كيف يلقي ذلك.. فمن وقت لآخر، في الأمسية، وبعد تناولنا طعام العشاء، يردد على مسامعي بدايتها، لكي يتدرب على إلقائها. فيجلس قرب المائدة.. وأجلس في الجهة المقابلة له.. ممثلة لجمهور المستمعين.. فيضم السيد "كاردينال" رأسه بين يديه.. متظاهراً بأنه يفكر، ويبحث عن عبارة يستهلّ بها محاضرته، وهو بالحقيقة لا يبحث عنها، لأنه حضّرها، ويحفظ المحاضرة كلها، غيباً، وعن ظهر قلبه. ولكنه، آنذاك، يبدو عليه أنه يفعل ذلك. ودفعه واحدة، يرفع رأسه بشكل مفاجئ، يردّ شعره إلى الوراء، بحركة عنيفة من يده اليمنى، ويقول:

"هنالك كاتب طائش، وإن كان عميق التفكير، أطلق على "فولتير" لقب: "الملك فولتير".. وكلمة "ملك" تعتبر شتيمة، لن أوجهها لوجه "فولتير".. فأنا ألقّبه بـ"الإله فولتير" معتذراً في الوقت نفسه عن استخدامي هذه العبارة بسبب الخرافات والمعتقدات الباطلة المرتبطة بها، ولكنّ تطبيقها على "فولتير" يمكن اعتباره وسيلة لتطهيرها من كل ذلك".

ويستمر هكذا في كلام مسهب عن "فولتير" الجمهوري.. وينبغي أن يدوم هذا ساعة كاملة، وأن يبدو خلال ذلك أنه يرتجل محاضرته طيلة الوقت.. ولكنّ المحاضرة مكتوبة.. وقد كُتبت.. وكتبت.. أتعلمين من كتبها؟ أنا يا صديقتي العزيزة، أنا التي كتبتها! فقد أراد السيد "كاردينال" أن أشاركه في أعماله.. وأملى

علي محاضرته.. وهو يتمرّن على الإملاء منذ بعض الوقت لأنه، على ما يبدو، يجب على الرجل الذي يعمل بالسياسة، أن يجيد الإملاء، ليس على شخص واحد وحسب، بل وعلى عدة أشخاص في آن واحد.

وهكذا، فإنه يوم الأحد الماضي، استدعى أمين سر العمدة ومعلم المدرسة.. وأجلسنا على ثلاث مناضد، أنا وهذين السيدين، وأخذ يملي علينا، نحن الثلاثة.. في الوقت نفسه.. ثلاثة مواضيع مختلفة.. على أمين سر العمدة، كان يملي فكرة ضدّ الاضطهاد، وعلى معلم المدرسة أفكاراً عن جرائم البابوات، وعليّ أنا، أخذ يملي مذكرة عن جيش مدني تماماً.. وقد اختلط عليه الأمر، وتلخبط قليلاً، هنا وهناك.. ولكن لم يكن لذلك كبير أهمية.. كان يذهب ويعود وهو يتصبّب عرقاً.. وقد أثار شفقتي، وكنت أقول له: "ستقتل نفسك، يا سيد كاردينال، فهذا العمل شاق، وأصعب مما ينبغي.."

ولكنه كان يجيبني: "يجب أن أتابعه، وسأتابعه إلى أن أنجزه" وسيستأنف هذا العمل يوم الأحد المقبل. وكان هذا يخيفني ويثير أعصابي.. وكثيراً ما أتساءل كيف يستطيع دماغ بشري واحد أن يحتوي كل هذه الأمور ويحيط بها إحاطة تامة.

وكل مساء، بعد أن نتناول طعام العشاء، يملي عليّ انطباعاته وذكرياته.. أي سيرة حياته.. وستكون في غاية الأهمية، ولكنها لا يمكن أن تنشر إلا بعد وفاته بخمسين سنة، عندما تكون الأهواء قد خمدت، على حدّ قوله.

والسيد "كاردينال" يضع أيضاً برنامجه الانتخابي استعداداً

لانتخابات المجالس البلدية.. وفي تلك الفترة سوف يدخل فعلاً في الحياة السياسية.. فهو لا يريد أن يسير بأكثر مما ينبغي من السرعة.. فالمجلس البلدي، أولاً.. ثم المجلس العام.. ثم، بعد ذلك من يدري.. من يدري.. فقد قال لي أيضاً السيد "كاردينال" مساء البارحة:

في الانتخابات العامة، كل شيء ممكن، يا سيدة "كاردينال". وهذا البرنامج الذي يضعه السيد "كاردينال" سيكون برنامجاً ثابتاً ونهائياً.. سيكون برنامج حياته بكاملها.. ويبدو أنّ هنالك سياسيين يضعون برامج، وبعد ذلك، عندما يصبحون في الحكم ويتسلمون السلطة.. يقولون:

"إلى الجحيم يا برنامجنا!".. أما السيد "كاردينال" فلا يأكل من هذا الخبز، ولا يتصرّف بهذه الطريقة.. وقد أثار وضع هذا البرنامج مشكلة بيننا نحن الاثنين، وأدى إلى حصول مشهد مؤثر جداً:

ففي إحدى الأمسيات، قال لي: "لقد حزمت أمري وحدّدت برنامجي تماماً.. اجلسي هنا، يا سيدة "كاردينال" لأمليه عليك" فجلست.. وبدأ: حرية من هنا، حرية من هناك.. كان هنالك ما يقرب من عشرين سطراً عن كل الحريات، وفي النهاية، باختصار: حرية كل شيء.. وتابع السيد "كاردينال": إعادة حق الطلاق.

هنا، يا عزيزتي، قفزت من على الكرسي، وحدّقت بقوة، وبكل شجاعة في وجه السيد "كاردينال" وقلت له:

لن أكتب هذا، يا سيد "كاردينال" لن أكتبه، وإذا كنت تحبني عليك أن تحذف هذا الكلام البذيء من برنامجك: فعندما تكون تزوجت امرأة مثلي، وساعدك الحظ فزوّجت إحدى ابنتيك بمركيز مليونير ثلاثة أضعاف، فلا يجوز أن يكون لديك مثل هذا الرأي. وأنت تحظى بإعجابي وبمحبتي، وأجلّك كما أجلّ الإله، ولكن يدي تتيبّس قبل أن أكتب كلاماً فظيعاً كهذا الكلام.

عند ذلك اقترب مني، أمسك يديّ الاثنتين، وقال لي:

اسمعي يا سيدة "كاردينال"، سأقوم، من أجلك، بالإقدام على تضحية كبيرة. فأنا، كما تعلمين، لا أجامل ولا أتساهل عندما يتعلق الأمر بالمبادئ.. ولكنني بسببك سأتخلى عن حق الطلاق، وسأحذفه من برنامجي.. ولكن علينا ألاّ نضيع الوقت.. فلنتابع العمل، هيا، فلنتابعه!..

وأراد أن يستأنف الإملاء عليّ.. ولكني لم أعد أستطيع الكتابة.. فالنحيب يكاد يخنقني.. واستولت عليّ نوبة من البكاء.. لقد ضحّى من أجلي بحق الطلاق! فوقعت على ركبتيه، وقبلت يديه.. أتقولين إني يمكن ألاّ أعبد هذا الرجل!

وأخيراً، ارتحت وهدأت.. فاستأنفنا العمل.. وكتبت كل ما أملاه عليّ: طرد اليسوعيين.. إلغاء جميع الطقوس والعبادات، الخ.. الخ.. وكان يمكن أن يكون لديّ ما أقوله بشأن هذه الأمور.. فأنت تعلمين أنه بقي لديّ شئ من الديانة والتدين.. وأعتقد أنّ الرجال المتفوّقين من أمثال السيد "كاردينال" بإمكانهم أن يستغنوا عن أي

نوع من الديانات.. ولكنّ هؤلاء الرجال، عددهم قليل، ويشكلون حالة استثنائية.. ويبدو لي أنّ الآخرين: كالجماهير، والشعب، لديهم معتقدات جيدة كالخشية، أو الأمل بشيء آخر، بحياة أخرى، بعد هذه الحياة العابرة، والزائلة التي نعيشها هنا، في الأسفل، على هذه الأرض.. ولي فضل أستطيع أن أفخر به عندما أتكلم هكذا، لأني حدث معي مرة أمر جعلني أشكو كثيراً من الديانة.. وقد مضى على ذلك زمن طويل، فقد حصل هذا في عهد الحكم الإمبراطوري، عشية اليوم الذي كانت "فيرجيني" فيه في الأوبيرا، ستبرز بين رفيقاتها. كانوا يعيدون تقديم مسرحية " غليوم تيل" ***(yuilloume Tell)***. وكان على "فيرجيني" للمرة الأولى أن تقوم برقصة "باليه" وكان لديها شيء من التجديد والتغيير، تنفرد به على بقية الراقصات، تقوم به على رؤوس أصابع رجليها.. وكنت أشعر بالقلق من أجل أصابعها، فلم تكن قوية، تلك الأصابع. وكنت قد أشعلت دزينة من الشموع في دزينة من الكنائس.. وإشعال الشموع كان يتم بطريقة تلقائية، دون أن يسألك أحد من أجل من، ولا من أجل أي شرع تشعلينها.. فأنت تدفعين قرشين، خمسة قروش، حسب ضخامة الشمعة، فيشعلونها لك، وتحترق في سبيل أي شيء تريدينه.. ولكني عشية يوم إعادة تقديم المسرحية، قلت لنفسي:

الشموع لا تكفي، لمباركة البدء بالعمل في دار الأوبيرا.. يجب إقامة قداس..

ذهبت إلى كنيسة "القديسة ماري" في حي "باتنيول" فوجدت هناك كاهناً قصيراً، كان يبدو أنه على عجلة من أمره.. قلت له:

سيدي الكاهن، إني قادمة من أجل إقامة قداس. متى؟ غداً. لراحة أحد الأموات، كيف لراحة أحد الأموات؟!.. أبداً، وعلى الإطلاق، إنه من أجل ابنتي الكبرى، التي لم تمت بعد، والدليل على ذلك أنها ستبدأ العمل غداً في دار الأوبيرا وأنا، من أجل هذا بالذات، أريد إقامة هذا القداس.

قداس من أجل بداية العمل في دار الأوبيرا؟!

وها هو الكاهن الصغير ينزعج ويوليني ظهره، قائلاً بأنه لا يمكن إقامة أي قداس من أجل هذه الأمور..

لا يوجد قداس لهذه الأمور؟!.. ولأيّ شيء إذن تقام القداديس؟! هل كان من الذنب ذنبي، أنا، إذا كنت ولدت في أسرة فقيرة، وأنّ ابنتي تعمل في الرقص، بدلاً من أن تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية؟.. ولكنها تنتمي الآن إلى الطبقة الأرستقراطية!.. ولم تعد بحاجة لقداديسهم التافهة والشريرة التي يقيمونها في حي "باتيونيول".. فهي لديها الآن كرسيها الخاص بالصلاة المغطى بالمخمل الأحمر، وشعار النبالة الخاص بها في أكثر كنائس فلورنسا عظمةً وعراقةً.

اكتبي لي، أطلعيني على أخبار دار الأوبيرا، واسلمي لصديقتك المخلصة.

"زوي كاردينال"



بولين كاردينال

"ريبومون"

١٢ أيار (مايو) ١٨٧٨

آه! يا صديقتي العزيزة، ياله من أسبوع! كم كانت، في البداية، فرحتنا كبيرة، وكم كان حزننا، بعد ذلك شديداً!..الأحد الماضي جرت انتخابات المجلس البلدي.. وكان السيد "كاردينال" قد قدّم ترشيحه.. وقد فاز في تلك الانتخابات! وأنت لا تستطيعين أن تتصوري فرحته، التي شعر بها، والسعادة التي غمرت..:

"لقد أصبحت شيئاً مهماً! أخيراً، أصبحت شيئاً مهمّاً، إنها الخطوة الأولى!.."

وظلّ يردّد هذا كثيراً.. دون أن يستطيع الاستقرار في أي مكان، كان يذهب ويعود، يتجوّل حول المنزل، وأراد أن يريني قاعة الاجتماعات، حيث تجرى المناقشات، وأين سيجلس فيها.. وفي المساء لم يستطع أن يتناول طعام العشاء.. وفي الليل، لم يتمكن من النوم..

وقد غفا مرتين أو ثلاث مرات، ولكنه كان يستيقظ مذعوراً، بعد ذلك، ويستأنف ترديد عباراته:

"لقد أصبحت شيئاً مهمّاً، إنها الخطوة الأولى"

ومن جهتي أنا، فقد كنت قلقة جداً، وأنا أراه يعاني من هذا الاضطراب، وأحاول تهدئته. حضّرت له "المغلي" في عزّ الليل.. "مغلي" زهور الزيزفون، وأضفت إليها رأساً كبيراً من "الخشخاش". وكنت أقول له:

يجب أن تنام يا سيد "كاردينال" يجب أن تنام، وإلاّ فإنك لن تقوى على خوض المعارك والصراعات التي تلوح في الأفق.

لأن من المؤكد يا صديقتي العزيزة، أنه كان هنالك صراعات على السيد "كاردينال" أن يستعد لخوضها، فهو لم يعين "عمدة" بعد، فهو يتوقع ذلك، وينتظره على أحرّ من الجمر.. وربما حصل "العمدة" القديم على أغلبية أصوات أعضاء المجلس.. فهو صناعي كبير ورجل أعمال تقاعد عن العمل بعد أن جنى ثروة طائلة، تقدّر بمليونين أو بثلاثة ملايين.. إنه من أولئك الرجال الذين، حسب تعبير السيد "كاردينال" يستغلون ثرواتهم، ويوزعونها في البلاد، دون روية أو تمييز، ويعطون في كل الاتجاهات، لكل الناس، للمدارس، للكنائس، وللمكتبات الشعبية، ولملاجئ العجزة والمحتاجين.. وهذا لم يعد يعتبر إحساناً، بل تكلفاً وتصنّعاً من أجل التبيّن والظهور، وهو بمثابة الرشاوى التي يُستمال بها الناس، وتُشترى ضمائرهم.

وعلى هذا الصعيد لا يستطيع السيد "كاردينال" منازلتهم. فهو لا يحرك الملايين بالرفش. ولا يملك سوى ما يؤمن له بحبوحة لائقة من العيش الكريم. ومع ذلك فهو يستطيع أن يعطي من وقت لآخر أشياء ومبالغ بسيطة، ولكنه لا يعطي شيئاً، على الإطلاق. فهذا هو أسلوبه في العمل، ويعتبره أحد مبادئه. وهو يحمرُ خجلاً من وصوله إلى غايته بتلك الأساليب الملتوية. فهو يريد أن يعود كل شيء إلى كفايته وقيمته الشخصية. وقد عقد العزم على خوض المعركة، في الحال، مع "العمدة" السابق.. ولذلك فقد حضر خطاباً سياسياً لكي يلقيه في الجلسة الأولى.. ولكن لنستمع ولنفهم.. سيكون الخطاب سياسياً، دون أن يبدو أنه كذلك، لأنّ من أخطاء القانون ومن المآخذ عليه أنه نص على أنّ المجالس البلدية لا يحق لها أن تهتم إلاّ بشؤون الناحية..، ولكن ستكون مصيبة كبرى، إذا كان السيد "كاردينال" بعد كل ما قام به من عمل، لا يستطيع التحايل على القانون، والالتفاف عليه. ويبدو أن التحايل على القانون والالتفاف هما أبجدية السياسي، والعمل السياسي.

وبعد الانتخابات بخمسة أيام، أي قبل البارحة، يوم الجمعة، يقع موعد عيد ميلاد السيد "كاردينال".. وفي صبيحة يوم الأربعاء، تلقيت رسالة موجزة من "بولين". كانت هذه الرسالة لطيفة جداً، طافحة بالمحبة والحنان:

"أمي العزيزة

لابدّ أنك منزعجة من خلافي مع أبي، ولأنه مستاء مني، وهذا

يحزنني، أنا أيضاً.. ويوم الجمعة هو موعد ذكرى وعيد مولد أبي.. ولو كانت لدي الجرأة الكافية لذهبت لتناول طعام العشاء معكم في الريف.. يمكنني أن أترك عربتي في قصر "هنري الرابع"، وأستقلّ عربة أجرة من "سان جيرمان" لكي لا أغيظ أبي. فهل يا ترى أستطيع القيام بهذه المجازفة؟ يمكنني بالطبع، أن أجلب لأبي هدية، وأرجو أن تكتبي لي، لإعلامي ما هي الهدية التي تدخل السرور إلى قلبه.." الخ.. الخ.

ورسائل "بولين" كان موزع البريد يسلّمها لي بالسرّ، واذهب فأقرها خفية في آخر الحديقة، ولكن فجأة وأنا أقرأ هذه الرسالة وأعيد قراءتها، رأيت السيد "كاردينال" يظهر من خلف إحدى الأشجار. كان في نهاية الرسالة كلام رقيق وعذب موجّه لي جعلني أتأثر وأنفعل. وشعرت أنّ عينيّ قد طفحتا بالدموع التي كادت تسيل منها..

فسألني السيد "كاردينال":

أهذه رسالة من بولين؟

نعم.

فضيحة جديدة أيضاً؟!

كان هذا ظلماً.. فطفرت الدموع من عينيّ، وأخذت أنتحب، ثم ناولته الرسالة، وقلت له:

خذ.. واقرأ..

فتناول الرسالة، وبعد أن قرأها:

كنت مخطئاً، يا سيدة "كاردينال" كنت مخطئاً.. لا يزال لدى هذه البنت المسكينة عواطف طيبة.. وتأملي، فلأني شعرت بفرحة كبيرة، أريد لك أن تحظي أنت بفرحة مثلها.. لا أريد أن أعرف كيف تعيش "بولين".. فيما إذا كانت تملك قصراً، خيولاً، ومجوهرات..

وتتساءل عن ذلك؟ إنها تملك الكثير!!

هكذا صحت بأعلى صوتي، وشعرت بأني أخطأت.. فقد تغلّب لديّ شعور الكبرياء وزهو الأم بابنتها، على الروية والتعقّل. وتابع السيد "كاردينال" كلامه، قائلاً:

لا أريد معرفة شيء عن ذلك، وسأبحث منذ الآن وحتى الغد، عن طريقة تُمكّن "بولين" من الحضور إلى هنا يوم عيد مولدي.. وسأفكر في ذلك هذه الليلة.. لأني، إنما أجد أفضل الأفكار في سهراتي الليلية، هذه.

وبالفعل حوالي الساعة الثانية صباحاً، أخذ السيد "كاردينال" يهزّني، قائلاً:

وجدت الطريقة.. حتى أنّ "بولين" تستطيع إذا رغبت في ذلك، تمضية بعض الوقت معنا.. ثمانية أو عشرة أيام.

ثمانية أو عشرة أيام؟

نعم، ولكن عليها أن تأتي مرتدية أبسط الملابس.. وسنقول عنها في القرية إنها قريبتنا: ابنة أخي، أو ابنة أختك.. تعمل بائعة في

أحد مخازن باريس.. وأنها تعاني من بعض الآلام، وأننا استقبلناها في منزلنا، بدافع الشفقة والإحسان.. وسيكون لهذا أثر طيب.. وبإمكانك الذهاب غداً صباحاً، لكي تصطحبي "بولين" إلى هنا.

وفي اليوم التالي، الساعة الحادية عشرة، كنت أطرق باب منزل "بولين"..

وقال لي الوصيف:

سيدتي خرجت.. تتريض، وتمتطي أحد الأحصنة، صباح كل يوم، ولكنها ستعود عند الظهر لكي تتناول طعام الغداء.. فإذا أرادت أم سيدتي، فلتنتظرها إذا كان لا يزعجها ذلك..

فتأملي كم هم مهذبون ومرتبون، خدم ابنتي!.. دخلت إلى الصالون الصغير.. وفتحت إحدى النوافذ.. لكم كنت سعيدة.. سأرى "بولين" عائدة بعد قليل وهي تمتطي ظهر الحصان.. لم أكن قد رأيتها أبداً، فيما مضى، ممتطية ظهر الحصان. وفي الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق، ظهرت "فارسة" عند زاوية الشارع.. كانت هي "بولين" على حصان يتلألأ كالفضة تحت أشعة الشمس، يتبعها مرافق شاب ذو مظهر متميّز!.. واقتربت.. ثم رفعت رأسها.. وعندما رأتني بقرب النافذة، صاحت بأعلى صوتها:

آه! ماما، ماما! نهارك سعيد يا ماما، لكم أنا مسرورة الآن!..

ولاحظي يا صديقتي العزيزة، أني بملابسي البسيطة، كنت أبدو كالعجوز الشمطاء.. هيّا، دعك من ذلك، إنّ هذه الفتاة طيبة

القلب وعاطفية جداً. ولم يعد يوجد الكثيرات، ممن هنّ في مثل وضعها، ويعترفن بأمهاتهن هكذا علناً، في الشارع، على مسمع من المارّة وأمام مرافق شاب ومتميز..

ودخلت وهي تحمل سترتها على ذراعها، وعلى رأسها قبعة رجالية.. وبدت لطيفة جداً، إنها حقاً فاتنة!.

ألقت نفسها بين ذراعيّ..

ماما.. ماما، هل رتّبت الأمور، ونستطيع أن نذهب غداً؟

فأجبتها أن الأمور مرتبة لكي نذهب اليوم، إذا رغبت بذلك.. وحدثتها عن الطريقة التي وجدها السيد "كاردينال". وكنت قلقة بعض الشيء، وأقول في سرّي: "لن تكون سعيدة، هذه الصغيرة المسكينة وهي تغادر قصرها، وتتخلّى عن ترفها وبذخها، لتدفن نفسها في جحر مع أبيها وأمها".

ولكن لم يكن هنالك شيء من ذلك.. لقد كانت مفتونة وفي منتهى السرور بهذه الرحلة: لانّ تمضية ثمانية أيام في الريف بين الخضرة والمناظر الخلابة، ستريحها وتجدد لها نشاطها. فهي قد تعبت وملّت خلال فصل الشتاء الذي أمضته في باريس. وليس مما يبعث على البهجة والسرور أن تظل مضطرة للّهو على الدوام.. ويسعدها ويكون من دواعي فرحها أن تأتي لترتاح قليلاً معنا في الريف..

وأخيراً، داعبتني كثيراً بلطف وحنان، فذكرتني بحياتنا العائلية السابقة، وبـ"بولين" الصغيرة التي كانت تحبني وأحبها كثيراً..

كـان هـنالك أيضـاً شـيء آخـر يفتـنها ويخـلب لـبّها: ألا وهـو التنكّر.. وارتـداء ملابس فتاة متوسطة الحـال.. لم تكـن تـريد إرجـاء السفر إلى اليوم التالي، فهي تريد أن نذهب في اليوم نفسه وفي الحال، معـي وبـرفقتي.. كـان لديهـا في المسـاء حفـل عشـاء.. وهكـذا فهـي ستتخلّص منه..

اسـتدعت "بولـين" "هيرمـانس" وصـيفتها الأولى -إذ إن لديهـا وصيفتين- وطلبت منها أن تبحث بين فساتينها وتنتقي أبسطها وأقلّها أناقة، وأن تلقي كل ذلك على الديوان الكبير في غرفة الزينة.. تناولنا طعـام الغـداء علـى عجل، وبعـد ذلـك صعدنا لنرى الفساتين.. لم يكـن أي منها يتناسب مع خطتنا.. فهذه الملابس يمكن أن تُحدث تجمعاً في "ريبومون" لمشاهدتها.

طلبت "بولين" تحضير عربتها، وهانحن نتجوّل في شوارع باريس، وننتقل بسـرعة بـين مخـازن بيـع الملابـس، وحوانيـت بائعـات القـبعات. واشـترت "بولـين" فستانين أو ثلاثـة، ومثلها مـن القبعات.. وكانت تجد كل ذلك ظريفاً وجميلاً.. وتقول لي:

"سترين يا ماما، كم سأكون جميلة وفاتنة.."

وقـد أدهشـها رخـص الفسـاتين والقبعات الـتي اشترتها.. وكانت تقـول دائمـاً للباعة: "لابـد أنكـم مخطـئون.. فهـذا يمكـن أن يسـاوي أكثر من هذا الثمن".

وكنت أنا، أدفعها بمرفقي:

"لا داعي لقول مثل هذا الكلام في المخازن".

وعندما اشترينا حاجتنا، كانت العربة امتلأت بالعلب والرزم، وبدأنا طريق العودة، عند ذلك صاحت "بولين" "وهدية بابا؟! ماذا يمكنني أن أقدم له كهدية؟"

خطرت على بالي فكرة فأجبتها:

لقد أهدت أختك لأبيك، فيما مضى، تمثالاً نصفياً لفولتير، وكثيراً ما سمعته يقول إنه يرغب بالحصول على تمثال مماثل لكاتب آخر من ذلك العصر.. ولكني لا أتذكر اسمه.. آه! لقد تذكرته: إنه "جان- جاك".. نعم، ولكن "جان جاك" ماذا؟.. انتظري.. هناك شارع يسمى هكذا.. الشارع الذي يقع فيه البريد الذي ينقل الرسائل.. "جان جاك روسّو" هذا هو!..

فذهبنا إلى الشارع الكبير واشترينا التمثال وحشرناه في العربة، مع الفساتين التي اشترينا أحدها بتسعة وأربعين فرنكاً والقبعات التي كان ثمن إحداها ثلاثة عشر فرنكاً ونصف.. وعدنا إلى المنزل، وبينما كانت "هيرمانس" تهيئ حقيبة صغيرة، أخذت "بولين" ترتدي ملابسها.. وقد اختارت فستاناً من "البركال" الرقيق منقشاً وقبعة من القش تزينها أزهار شقائق النعمان.. فبدت فاتنة تخلب الألباب.. ونزلنا.. وركبنا في العربة.. وعندما أوشكنا على الانطلاق، ضربت "بولين" جبينها:

آه! يا إلهي، وحفل عشائي مساء اليوم، الذي نسيته، وحفل عشاء الغد، وعشاء بعد غد..

وأرسلت الخادم ليبحث عن "هيرمانس" وعندما أتت "هيرمانس" قالت لها:

"عليك أن تكتبي إلى البارون في الحال، أنّ ذلك غير ممكن اليوم لأني ذاهبة لزيارة أمي في الريف.. واكتبي في المعنى نفسه للسيد "بول" بشأن يوم الغد، وللمركيز اكتبي أيضاً، بخصوص بعد غد..

أمرك يا سيدي.

آه! يجب أن تكتبي رسالة لطيفة جداً للسيد بول.. أمّا الآخرون، فكما تشائين، لأن الأمر سيّان بالنسبة لي.

وانطلقنا. وأنا منذهلة من شدة دهشتي، فسألتها:

أوصيفتك هي التي تكتب رسائلك وترسلها لهؤلاء السّادة؟

أوه! "هيرمانس" توقع عنّي أيضاً، والجميع يعتقدون أني أنا التي كتبت تلك الرسائل. و"هيرمانس" تكتب أحسن مني، فقد كانت معلمة لدى أسرة كبيرة وعريقة، وهي لا تُخطئ في الإملاء أبداً.. بينما أنا!.. والذنب في ذلك ذنبك يا ماما.. فقد كنت أكثر اهتماماً بتعليمي الرقص، من تعليمي الإملاء..

هذا لأنّ ذلك كان يبدو لي أكثر نفعاً وفائدة، وكنت محقة وعلى صواب.. فهل يمكن أن تكوني أصبحت على ما أنت فيه لولا الرقص؟ والإملاء، تأملي قليلاً إلى أين يؤدي الإملاء.. إنه أدّى بالتي تتقنه إلى أن تصبح وصيفتك!

ووصلنا إلى "سان جيرمان" ونحن نثرثر؟ ونتحدث في مختلف

المواضيع.. وهناك نقلنا إلى إحدى عربات الأجرة، الحقيبة وتمثال "جان جاك روسّو" النصفي. وبعد نصف ساعة، كنّا في "ريبومون" ففتح السيد "كاردينال" ذراعيه وضمّ ابنته إليه وعانقها، ولكن وهو يناديها بابنة أخيه، بسبب وجود خادمتنا الصغيرة التي كانت تقف هناك..

وأيّ عشاء! وأيّ أمسية! إنها الحياة العائلية! وهي حلمي!.. وبعد العشاء، أجرينا بعض التنقلات في الصالون لكي نضع "جان جاك روسّو" مقابل "فولتير" وفي مكان مماثل لمكانه. وبعد ذلك أخذنا نلعب الورق، أنا و"بولين" على رهان بسيط القيمة.. وشعرت بعودتي إلى الشباب وأنا ألعب الورق مع ابنتي. وكان السيد "كاردينال" ينظر إلينا.. كان قد توقّف عن العمل. لأنه عادة في هذا الوقت من الأمسية أي بعد تناول طعام العشاء، يكتب سيرة حياته.

ولكي يظهر لابنته مزيداً من المودّة والمجاملة، أراد أن يلعب معها هو أيضاً، ولعبا بالفعل، جولتين أو ثلاث جولات. وأحياناً يلعب معي بدافع المجاملة والتسامح، فهو يعرف أنّ ذلك يسرّني ويجعلني أشعر بالسعادة.. ولعبه بالورق يعتبر تنازلاً كبيراً من قبله، لأنّ هناك بالحقيقة شيئاً يغيظه في هذا اللعب: ألا وهو "ثمانون الملوك".. حتى إنه في بعض الأوقات لا يلعب أبداً، وعندما يلعب يلقي جانباً أوراق اللعب التي عليها صورة الملك، لمجرد الرغبة بإلقائها، ولكي لا يضطر إلى عدّها.. ولكنه في الفترة الأخيرة وجد حلاً لهذه المشكلة.. فهو يلعب الآن "ثمانين الملوك" ولكنه لا يلفظ كلمة "ملوك" أبداً.. بل يقول: "ثمانين كذا".. وبذلك سوّيت المشكلة.

وعند الساعة العاشرة، قدمت لهما الشاي.. شاي مع قطع صغيرة من الحلوى، أصنعها أنا بنفسي.. وأعجبت "بولين" بها ووجدتها لذيذة.. حتى أنها بدرت منها حماقة بهذه المناسبة، بصياحها بأعلى صوتها:

آه! ما أطيب هذه الحلوى التي تصنعينها يا أمي.. إنها أطيب من كل ما أتناوله كطعام للعشاء في المطعم الإنكليزي.

فقلت: أحم! أحم!.. ولحسن الحظ لم يسمع السيد "كاردينال" ما قالته "بولين"، أو على الأقل فقد تظاهر بأنه لم يسمعه.

وبعد أن تناولنا الشاي، اصطحبت "بولين" إلى غرفتها الصغيرة، ذات الستائر البيضاء.. وساعدتها بيديّ على خلع ملابسها.. وشعرت أني عدت إلى بيئتي.. آه! ذلك لأني يا صديقتي العزيزة ليس لديّ من تلك الأفكار المتعلقة بالشرف التي تشكل عظمة السيد "كاردينال".. ولو أني لم أكن كرّست نفسي لخدمة زوجي ولمشاركته حياته، كما أفعل الآن، لكنت دبّرت أموري لأصبح وصيفة لدى "بولين".. وفي ذلك المساء أرقدتها بنفسي.. وضممت على رجليها أطراف اللحاف، بنفسي.. وكانت تُسرّ بذلك، وتقول لي:

إنك تفعلين هذا مثلما كنت تفعلينه عندما كنت طفلة صغيرة، أتتذكرين ذلك؟.. كنت لا أزال من الراقصات الصغيرات المبتدئات، في دار الأوبيرا، وكنا نعود سوية من هناك، بعد انتهاء العرض، أنت وأختي وأنا. وكنا نعيش بكل بهجة وسرور، ببضعة قروش نشتري منها كستناء من البائع الذي كان يقيم في الشارع الرئيسي في حيّ "باتنيول".

ولكن للأسف يا صديقتي العزيزة، فإن ذلك اليوم السعيد لم يأتِ بعد ذلك مثيل له.. والكارثة كانت على وشك الوقوع.. ولكن لكي أروي لك ما الذي سبّب الكارثة أراني مضطرة للدخول في بعض التفاصيل: هنالك فوج من الخيالة، في معسكر يقع في "سان جيرمان" على بعد أربعة كيلو مترات من القرية التي نقيم فيها. وهؤلاء الجنود تارة يكونون من الخيالة العاديين، وتارة يكونون من القنّاصة. وهم اليوم من القنّاصة.. ولأنّ منطقتنا جميلة فكثيراً ما يأتي بعض الضباط على أحصنتهم ليتنزّهوا على الطريق الذي يمرّ أمام بيتنا..

وكان عملهم هذا يغيظ السيد "كاردينال" على الدوام، ذلك لأنّ الجيش النظامي لا يدخل في نطاق تفكير السيد "كاردينال" ولا في برنامجه. فهو لا يعرف إلا أمراً واحداً: الأمة المسلحة. فلا جنود أثناء السلم.. شرطة، حراس حقول. السيد "كاردينال" يتقبّلهم ويوافق عليهم، وخاصة بعد أن أصبح ملاكاً في الريف حيث يوجد الكثير من المتشردين الذين يسرقون الخضار والثمار من البساتين.. ولكن لا جنود نظاميون، ولا جنود أو حراس يخدمون الملك أو الحاكم.. وهذه الكلمات هي التي يستخدمها السيد "كاردينال" وقد نقلها لك كما يقولها هو.

وأثناء الحرب، مثلاً، يختلف الوضع.. فالجميع عند ذلك يصبحون جنوداً. وكل شخص لديه بندقيته وذخيرتها، في منزله. ومن لديه حصان يمتطي حصانه، ومن ليس لديه حصان يمشي سيراً على الأقدام، ولكنّ الجميع ينطلقون، مشكلين جيشاً، ولكنه ليس

جيشاً عادياً، إنه سيل عرم، إنه جرف ثلجي ينهار ويجرف كل شيء في طريقه.

هذا هو جيش السيد "كاردينال".. إنه سيكون جيشاً لا يُهزم.. كل هذا مذكور في أوراق السيد "كاردينال".. وكثيراً ما يقول لي: يمكن أن أموت يا سيدة "كاردينال"، ولكن كل شيء أوضحته في أوراقي.

وخلال ثمانية وأربعين ساعة، يصبح كل مواطن مستعداً لأية حرب تنشب، إن كانت خارجية أو أهلية. ولم يهمل السيد "كاردينال" أدق التفاصيل، وإليك على سبيل المثال، موضوع المدفعية، فقد ابتكر محراثاً، يمكن تحويله إلى مدفع خلال خمس دقائق.. ففي حالة السلم هو محراث، وإذا نشبت الحرب يصبح مدفعاً، والفلاح هو المدفعي، الذي يتدرّب لمدة ساعتين كل يوم أحد، على "محراثه- المدفع": إنه أعجوبة.

ولا يأتي وزير حربية -وهم كثيراً ما يتغيّرون- دون أن يكتب له السيد "كاردينال" ويطلعه على اختراعه. دون أن يتلقّى أيّ جواب، على الإطلاق.. وهذا لم يدهش السيد "كاردينال".. فهذا ما يسميه هو، جمود المكاتب والدواوين ومقاومتها السلبية لكل تجديد..

وستفهمين لماذا حدّثتك عن خيّالة "سان جيرمان": فأوّل أمس، في نحو الساعة العاشرة صباحاً، كان السيد "كاردينال" يطالع الصحف في مكتبه.. وهو مشترك بتسع صحف -وهذه أكبر نفقة يقوم بها- ثمانية منها منسجمة مع آرائه، وواحدة كل ما فيها

يؤيد الأكليروس، وهو يقول إنه مشترك بها ويطالعها لكي ينمّي غيظه ويحافظ عليه..

وكانت "بولين" قد ذهبت للقيام بجولة خارج المنزل، على الطريق العام، مرتدية فستاناً رقيقاً أبيض، وشكّت في شعرها، كيفما اتفق، وردة حمراء، ووضعت فوق ذلك قبعة قديمة من القش من قبعات السيد "كاردينال" ثمنها خمسة فرنكات: كانت فاتنة، تسلب الألباب..!

وعند مرورها، أراد السيد "كاردينال" أن يوقفها.. واقترح عليها أن يسمعها محاضرته التي سيلقيها عن "فولتير"، لأنه كان حالما يمسك بأحدهم.. ولكنّ هذا لم يُغرِ "بولين"..:

كلا، ألا ترى؟ بما أني في الريف، يجب أن أستفيد من الريف وأستغل وجودي فيه.. وأنا ذاهبة لأقوم بنزهة في الحقول.

ولكن، أتعرفين على الأقل، ماذا كان "فولتير"؟

أوه! أعرف ذلك جيداً.. كان عجوزاً قصيراً، مجعّد الوجه، كان سابقاً من الرخام في رواق "المسرح الفرنسي".. وقد نُقل إلى ندوة مجمّع المسرح بإحدى عربات الخضرة.. رأس قرد، حقيقي، ولكنه لم يكن يبدو غبياً.. وهكذا، فأنت ترى جيداً أني أعرف ماذا كان "فولتير".

وذهبت لتقوم بنزهتها، وذهبت أنا لأقطف بعض ثمار الفراولة من البستان.. إنها باختصار حياة الريف والحياة العائلية.!

وفجأة، مرت خيول مسرعة على الطريق..

فقلت في سرّي:

إيه! أنهم أيضاً من أولئك القناصين المهرّجين الذين يأتون لإغاظة السيد "كاردينال" وإزعاجه أثناء عمله. ولكن، هاأنا أسمع صيحات وضحكات في باحة المنزل.. فأخذت أنظر من بعيد: كانت "بولين" عائدة يلاحقها اثنان من ضبّاط خيالة القنّاصة، على صهوة جواديهما.. كانت قد التقت بهما في الطريق، وانظري ماذا يفعل الشؤم وسوء الطالع: فقد كان الاثنان يعرفانها.. وأرادت أن تهرب، ولكنهما ركضا وراءها حتى باحة المنزل. فلجأت إلى أعلى الدرج، ومن هناك، بين الضحك والاستياء أخذت تصيح بهم:

دعوني وشأني.. انصرفوا.. هيا، انصرفوا من هنا!

تعالي لتتناولي طعام الغداء معنا، الآن في قصر "هنري الرابع"..

في يوم آخر، لا أقول لا، ولا أرفض هذه الدعوة.. ولكني اليوم لا أستطيع ذلك. هيا، اذهبوا.. اذهبوا في الحال..

ولكنهما ما كانا يريدان الذهاب، وعندما وصلت أنا بما أمكنني من السرعة، قادمة من داخل البستان، كان أحد هذين السيدين قد بدأ يحاول الصعود بحصانه على الدرج..

وهاهو السيد "كاردينال" يخرج فجأة من البيت: وهذا ما كنت أخشاه كثيراً، فبقيت واقفة هناك، منذهلة، وسلة الفراولة في يدي..

إلى الوراء أيها السادة، إلى الوراء!.. أنا هنا في بيتي.

اسمع، يا أبي، لا تزعل.. فأنا أعرف هذين السيدين.

فصاح السيد "كاردينال":

ولكني، أنا لا أعرفهما، ولا أريد أن أعرفهما..

اخرجوا أيها السادة، اخرجوا!.. فملكية أحد المواطنين الأحرار لم تعد مباحة لجنود الحاكم، ولا تحت رحمتهم. فذلك يذكّرنا بأسوأ أيام تاريخنا.. ومرة أخرى أقول، اخرجوا يا سادة..

وعندما قال السيد "كاردينال" هذا، كان يمدّ ذراعه الأيمن إلى الأمام.. كان مدهشاً يثير الإعجاب.. والضابطان، كانا على ما يبدو من الناس الطيبين، لأنهما انصرفا دون أن يقولا شيئاً، وبعد أن توجها بالتحية لي ولبولين.. وصحيح أنّ "بولين" التي بقيت في أعلى الدرج، كانت توجّه لهما، دون أن يرى ذلك السيد "كاردينال" ومن وراء ظهره، إشارة التوسّل التي تعني في الأوبيرا، وفي التمثيل الإيمائي: "انصرفوا من هنا.. هيّا انصرفوا"

وذهبا، ولكن بعد ذهابهما مباشرة، بدأت مشاحنة رهيبة.. وبدأ السيد "كاردينال" شديد القسوة، بل وأقسى ممّا ينبغي مع "بولين".. عند ذلك، فقدت وعيها.. فهي حادّة الطبع، كما تعلمين.. وقالت لأبيها إنّ هذين الضابطين كانا سيدين راقيين جداً، وأنّ أحدهما من فرسان السباق.. ولامته وعنّفته لأنه بدا مغفلاً وفظاً.. أي باختصار، فإنها قالت له كلاماً لا يجوز أن تقوله فتاة لوالدها.. وكان السيد "كاردينال" يستمع لكل ذلك، وهو منزعج ومغلوب على

أمره.. وحاولت إسكات "بولين" وإيقافها عن الكلام.. ولكني لم أستطع.. فقد كانت غاضبة جداً.. وأخيراً، صرّحت لنا بأنها ملّت الحياة العائلية، وأنّ السير على الأقدام مسافة أربعة كيلو مترات لا يزعجها ولا يخيفها، وأنها ذاهبة لتناول طعام الغداء في قصر "هنري الرابع".

وذهبت مسرعة كالمجنونة. عند ذلك، قال لي السيد "كاردينال" ببرود عجيب:

لقد أردت أن أعيد لك ابنتك يا سيدة "كاردينال" ولكني لم أوفق بذلك.. وبقي لي شيء واحد، هو العمل.. فلنرجع إلى البيت هنا، لنرجع!.

ورجعنا.. فجلس واستأنف قراءة صحفه.. كانت يده ترتجف قليلاً، ولكنه مع ذلك كان يقرأ.. هو يتمتع بطاقة شديدة، وبقوة إرادة كبيرة..

وبعد ربع ساعة، رفع رأسه، وكان قد استعاد هدوءه، وقال لي:

"تلك الإشارة التي قمت بها، قبل قليل من أعلى الدرج، لكي أطرد ذينك الطائشين الأحمقين، هل لاحظتها؟

أوه! بلى، لقد كنت رائعاً..

إيه، حسناً! لقد كانت تلك إحدى الإشارات الاعتيادية لدى "ميرابو".

فياله من رجل يا صديقتي العزيزة، يا له من رجل! إنه منصرف على الدوام إلى عمله وإلى قضيته، متعلق دائماً بأفكاره السياسية ومتمسك بها، حتى في مثل هذه اللحظات والظروف الصعبة..

المخلصة تماماً لك:

"زوي كاردينال"

فيرجيني كاردينال

ريبومونت، في ٥ حزيران (يونيو) ١٨٧٨.

آه! يا صديقتي العزيزة، كم هو مصيب وعلى حق المثل القائل: "انّ لا ورود بدون أشواك، ولا مسرّات بدون مشقة وتعب.." إنه كالقدر المحتوم، ويخيّل لي أنّ جميع انتصارات السيد "كاردينال" قد كتب لها أن تشوهها أخطاء ابنتيه، وتصرفاتهما السيئة.. فمنذ ستة أسابيع ارتكبت "بولين" غلطتها.. وهذه المرة، حصلت غلطة "فيرجيني".. نعم، عزيزتي "فيرجيني" المتحفظة جداً، المتميزة، والشديدة الحرص والتعقّل.. ارتكبت حماقة.. ويا لها من حماقة، إنها حماقة ضخمة!.. ولكن كل شيء سوّي في نهاية الأمر، والفضل في ذلك يعود لي أنا، أمها، ولكن يا لهما من يومين: يوما الثلاثين والحادي والثلاثين من أيار "مايو"..

وأبدأ بيوم الثلاثين.. كان هذا يوم الذكرى المئوية الشهيرة والمحاضرة الهامّة.. كان يمكن أن تكون الساعة آنذاك السابعة

والنصف أو الثامنة إلا ربع، صباحاً. كنت منهمكة بمراجعة مسوّدة محاضرة السيد "كاردينال" لأني أنا أيضاً، حفظت المحاضرة عن ظهر قلب.. وكان عليّ أن أجلس في الأمسية، في وسط المنصّة على أحد الكراسي، وراء السيد "كاردينال" حتى إذا ما نسي شيئاً، أو بالمصادفة، اختلط عليه أمر ما: "تراك!" أكون أنا هناك لألقّنه إياه.

كنت قد وصلت إلى مقطع ضد الديانة، كتب بلهجة قاسية، وإن كان ذلك لا يتفق مع أفكاري.. لأني أنا، كما تعلمين، متخلّفة بعض الشيء.. وكان من الممكن أن أتمسك بالديانة، لولا خوفي من إغاظة السيد "كاردينال".. وفجأةً وأنا أراجع ذلك المقطع الظريف الذي يهاجم الديانة.. قرع الباب الرئيسي الذي يطلّ على الشارع. فألقيت نظرة: إنه ساعي البريد الذي يوزع البرقيات..إنها برقية!.. وعندما تصلنا إحدى البرقيات، أفكّر، في الحال بابنتيّ العزيزتين..

ولم يخطئ ظنّي.. كانت البرقية من "فلورنسا".. من صهري المركيز..

وفي غمرة قلقي كأمّ، قرأتها بصوت عال، دون أن انتبه للسيد "كاردينال" الذي كان موجوداً هنا، غير بعيد عني:

"فيرجيني" ذهبت، ليست وحدها، استقلّت القطار السريع الذي يصل إلى باريس في الثلاثين من أيار "مايو" الساعة الواحدة بعد الظهر. أنا سأسافر في القطار السريع التالي، فأصل اليوم التالي، في الساعة نفسها. امنعي "فيرجيني" من متابعة رحلتها".

فقال السيد "كاردينال":

إني لم أفهم شيئاً!

فصحت كما تفعل العجوز الغبيّة:

آه! لقد فهمت ذلك، وزيادة: "ليست وحدها.. ليست وحدها!.. فقلب الأم لا يخطئ في هذه الأمور.. لقد هربت فيرجيني مع عشيق لها!

كانت زلّة لسان! لم أكن أفكر بالسيد "كاردينال" الشديد الدقة، والحسّاس جداً بكل ما يتعلق بالاستقامة والشرف.. فقد امتقع وجهه تماماً. وقال:

كان لي ابنتان، إحداهما اتجهت اتجاهاً سليماً، والأخرى اتجهت اتجاهاً سيئاً، وهاهي تلك التي اتجهت اتجاهاً سليماً تبدأ سيرها في الاتجاه السيئ، كأختها.

وقراءة هذه الجملة وهي مكتوبة، لا يعبّر عن شيء، ولكن لو تعلمين كم تبدو مؤثرة ومأساوية عندما يقولها السيد "كاردينال"..

ولكن لحسن الحظ خطرت لي آنذاك فكرة، فتناولت البرقية، وتظاهرت بأني أعيد قراءتها بانتباه، ثم قلت:

إني مجنونة حقاً.. ليس الأمر كذلك أبداً!.. وليس له أية أهمية.. اسمع يا سيد "كاردينال".. وإليك ما حصل في فلورنسا: لقد حصلت مشاجرة عائلية بين المركيز و"فيرجيني".. عند ذلك ذهبت سرّاً، ودون أن تخبر أحداً بذلك.. فكرة سيئة خطرت لها.. فأسرع المركيز وراءها في القطار التالي ليستعيدها، وليطلب منها الصفح.. وللمركيز

أخطاؤه الكثيرة، ولكنه حريص على مركزه وكرامته.. ولا يمكن أن يركض وراء ابنتنا ليستعيدها، لو أنها هربت مع عشيق لها..

ومع ذلك، فإن السيد "كاردينال" لم يكن مقتنعاً بما قلت، وأخذ يدرس البرقية ويتمعّن فيها، ثم قال لي:

ليست وحدها.. ليست وحدها.. كيف تفسّرين هذه الكلمات، يا سيدة "كاردينال"؟

عند ذلك خطرت على بالي فكرة جديدة:

"ليست وحدها"!: هذا يعني أن فيرجيني سافرت مع إحدى وصيفاتها.. ولتطمييننا، إنما كتب المركيز هاتين الكلمتين. وعلاوة على ذلك، إليك يا سيد "كاردينال" وانظر إلى ما هو أكثر إقناعاً، والذي يحسم كل شيء: "ليست وحدها": تأمّل! ***(Pas seule)*** كتبت بصيغة المؤنث، وفي آخرها حرف ***(e)*** وهو علامة التأنيث.. وهكذا فلو أن "فيرجيني" سافرت مع عشيق لها لكانت كتبت بصيغة المذكر، على هذا الشكل: ***(Pas seul)***.

وهذه الفكرة الأخيرة طمأنت السيد "كاردينال" تماماً. وقلت له بألاّ يقلق، وأن يتابع مراجعة محاضرته وهو مطمئن، ثم سافرت إلى باريس.

وصلت إلى محطة "ليون"، وسألت من أين يصل المسافرون القادمون من فلورنسا، فقيل لي "من هناك" فجلست أمام الباب، وأخذت أنتظر. ولكن لم يطل انتظاري: فقد لمحت عزيزتي "فيرجيني"

بين جمهور المسافرين، كانت شاحبة الوجه، ترتعش وقد غطت وجهها بحجاب شفاف، وتستند على ذراع رجل طويل القامة، ممتلئ الجسم.. يحاول أن يبدو جميلاً بشاربه الضخم الأسود وبشعره المجعّد.. ورأتني فتركت ذراع الرجل، وأسرعت نحوي، قائلة:

آه! ماما! ماما!

أخذت يدي تحكّني، متشوقة للضرب. وكنت أستعدّ لأوجه لها ضربتين –فقد كان هذا أسلوبي فيما مضى، في دار الأوبيرا- عندما ألقت عزيزتي "فيرجيني" نفسها بين ذراعيّ، وانفجرت بالبكاء وهي تقول لي:

آه! لو تعلمين يا أمي، لقد مللت بعد أن تحمّلت بما فيه الكفاية.

وأثناء ذلك اقترب منّا "المتصابي"، وقال بلكنة إيطالية:

ماذا هنالك، يا "فيرجيني"؟

فقلت له، وأنا أحدّق في بياض عينيه:

عفواً، أيها السيد، عفواً أنا أمها.

فقالت له "فيرجيني":

نعم، هذه أمي. أتسمح لي بأن أتحدث معها؟

حسناً، أنا ذاهب للاهتمام بالأمتعة.

وذهب، وحسناً فعل بذهابه، ولولا ذلك لكان هو الذي تلقّى الصفعتين.

فاقتدت "فيرجيني" إلى مقعد، في جهة منزوية، وسألتها:

ما هذا الذي أرى؟ من هذا المهرج الذي يرافقك؟

عند ذلك عرفت الحقيقة، شيء فظيع يا صديقتي العزيزة: إنه مغن إيطالي! مغنٍّ إيطالي! فتأملي!.. أن تكون مركيزة، وتتخذ لها عشيقاً، وهي حتى لا تتخذه من طبقتها! كان هذا أمراً لا يصدّق، ولكنّ الأمر هو هكذا، وهذا هو الذي حصل.

وبينما ذهب الآخر ليبحث عن أمتعته، روت لي الهرة الصغيرة المسكينة، كل شيء: فهي تشعر بالملل القاتل، هناك في فلورنسا، وأنّ أهم تسلية لها، هو المسرح، وأنه كان هنالك مغنٍّ في الشتاء الماضي، مغن صوته جميل جداً، ظريف وخبير في شؤون الحب والغرام. وقد التقت عدة مرات بهذا المغنّي في الأمسيات والحفلات التي تقيمها الطبقة الراقية. وفي آخر مرة التقت به في منزل أميرة من صديقاتها. ووقفت لوحدها مع المغني في فتحة إحدى النوافذ لمدة خمس دقائق، وهناك كان هذا المغني من الوقاحة بحيث أنه باح لها بحبه، وطارحها الغرام، قائلاً لها أنه يستطيع تماماً أن يتكلم معها هكذا، لأنه لا يأمل أن تبادله الحب، فهو مسافر في اليوم التالي إلى لندن، بسبب بدء موسم العمل هناك، وأنه لن يراها بعد ذلك أبداً.. عند ذلك اضطربت وشعرت بانزعاج شديد فأحدث ذلك فضيحة أمام أعين جميع أفراد المجتمع الإيطالي الراقي، الذين كانوا هناك.. فاقتادها المركيز، وفي طريق عودتهما إلى القصر، عنّفها ووبّخها بشدة، واتّهمها بأنها خليعة المغنّي، فصاحت: "هذا ليس صحيحاً، هذا ليس صحيحاً!" عند ذلك

استشـاط غضبـاً، وأخـذ يضـربها ضـرباً مـبرحاً.. لـكمـات وصـفعات، بكلتا يديـه.. وتـركـها فـاقدة الوعـي، مستلقية عـلى إحـدى الأرائـك، وخرج وهو يقول لها:

عـليك أن تعـرفي جيـداً! أيـتها السـيدة أنـي لا أريـد أن أصـبح أضحوكة أهل فلورنسا.

وبقيت لوحدهـا.. فاستولت عليها، هـي أيضـاً بدورهـا نوبـة مـن الغضب الشـديد: "آه! أنت لا تـريد أن تصبح أضحوكة أهـل فلورنسا؟ إذن انـتظر، انـتظر قـليلاً!" وهـربت وهـي في ملابـس وفي زيـنة حفـلة الـرقص، بعـد أن نـزعت عنها كـل حليها ومجوهـراتها، وكـل مـا لـه قيمة.. وذهـبت دون أن تـأخذ معهـا قرشاً ولا حلية ولا أيّ شيء، قاصدة لقاء المغني، وقالت له:

"ها أنا ذا! أنت تحبّني.. وأنا أحبك.. هيّا، ولنذهب".

وذهـبا، ولـكـن "فيرجيـني" لم تـكـد تصـعد إلى القطـار حـتى أدركـت أنهـا قـد ارتـكبت حماقـة. آه! ذلـك لأنها وهـي المرأة الذكية، اكتشفت بسرعة من هو هذا المغنّي.

وهـا هـو المغـني يعـود. وقـد أحضـر حوائجـه وأتـى يـبحث عـن "فيرجيني" ليصطحبها معه.

كـان يريد أن يستقل قطار "بولونيه" ***(Boulogne)*** السريع.. دون أن يـبقى في بـاريس، بـل يمـر بهـا مـروراً وحسـب.. ولـكـني أمسـكت بابنـتي، ولم أتـركها.. كـنت كاللـبوة الـتي تحمـي أشـبالها وتدافـع عنهم، وعندما أوتي الجرأة ليقول لفيرجيني:

تعالي، لدينا هنا عربة صغيرة.

قلت له:

عليك أن تصعد إليها في الحال، وبمفردك، عربتك الصغيرة يا بني!.. تريد أن نعطيك مركيزة لتسليك ولتلهو بها أثناء موسم عملك في لندن.. هيّا، اذهب إلى محطة "الشمال" وبأسرع ما يمكن.

وأراد أن يعترض ويعاند، ولكني تابعت:

إحذر أن ترتكب أية حماقة، وإلاّ فإني سأحدث جلبة وضجّة.. ليس لك أية حقوق عليها، وأنا لي عليها حقوق، فأنا أمها. وجميع الأمهات سيؤيدنني ويقفن بجانبي، ويقف إلى جانبي أيضاً جميع رجال الأمن، ورجال الشرطة.

وبدأ الناس يتجمعون حولنا. كانت "فيرجيني" ترتجف. وأخذت تتوسل إليه أن يذهب، وأخيراً صعد بمفرده إلى عربته الصغيرة، وذهب ليستقل قطاره إلى لندن. وذهبت أنا و"فيرجيني" بعربة أجرة إلى محطة "سان لازار".

وعندما صعدنا إلى العربة قلت لفيرجيني:

الأمر الذي يشغل بالنا، والذي لابدّ أن نهتم به قبل كل شيء، ليس موضوع المركيز، بل موضوع أبيك: فلا شيء ينبغي أن يعكر صفو السيد "كاردينال" وراحته وبخاصة اليوم.. فهذا المساء هو موعد محاضرته عن "فولتير". فأنت ترين أنك اخترت وقتاً غير مناسب لتقومي بفعلتك هذه.. ولو أنها حصلت في يوم آخر لكانت أقل أهمية. ولكن

مع ذلك، علينا أن نتدبر الأمر، ونحل هذه المشكلة: يجب ألاّ نجعل الدك يشكّ بفضيلتك وبطهارتك، هذا هو الجانب الأساسي في الموضوع.. وسنلقي كل التبعة والمسؤولية فيما حدث على المركيز.

ولكننا، هكذا، نكون قد كذبنا يا أمي.

هاأنت تتمسكين بعواطفك ومشاعرك الرقيقة، نعم نكون قد كذبنا، ولكن كل شيء مباح ومسموح به، عندما يتعلق الأمر بطمأنينة وشرف السيد "كاردينال".

وعندما وصلنا، أسرعت إلى مكتب السيد "كاردينال" وقلت له:

هاهي.. إنها ملاك.. أما هو، ذلك الرجل فهو وحش مخيف.. فقد ضربها.. نعم ضربها حتى أدماها..

لا يدهشني ذلك ولا أستغرب شيئاً من كهنوتي نصير لرجال الإكليروس.. تعالي، يا عزيزتي فيرجيني تعالي، أيتها الضحية، بل الشهيدة المسكينة..

وفتح لها ذراعيه.. ولكنها ترددت في أن تجعله يضمها إليه..

أنت طيب جداً، يا بابا، لقد ارتكبتُ بعض الأخطاء.. هذه رقّة، ماذا أقول، بل رقة مبالغ فيها وزائدة عن الحدّ!..

لذلك قاطعتها.. ودفعتها إلى ما بين ذراعي السيد "كاردينال"، ثم أوقفت مشهد الحنين والتعاطف هذا: فلم يكن لدى السيد "كاردينال" وقت للتأثر والانفعال في يوم كهذا.. كان بحاجة لإراحة

أعصابه وللمحافظة على جميع ملكاته ووسائله، استعداداً لتلك الأمسية.. ولذلك، قلت لفيرجيني:

تعالي.. ولندع والدك وشأنه.. علينا ألا نثيره، وألاّ نسبّب له أي اضطراب.. وسيصل المركيز غداً إلى باريس، وعليه أن يطلبك من والديك، جاثياً على ركبتيه.

ويا له من يوم يا عزيزتي! كنت أذهب من السيد "كاردينال" إلى "فيرجيني" ومن "فيرجيني" إلى السيد "كاردينال" كنت قلقة على "فيرجيني" فهي لديها أفكار عن العالم الآخر. وتفكر على الدوام بذلك العالم، وتبالغ كثيراً في تقدير خطورة ما فعلته، وهي تعتقد أن المركيز لن يصفح عنها، وتريد أن تسافر إلى لندن لكي تلتقي بالآخر.. قائلة:

هنالك فرقة لرقص الباليه في "كوفان- جاردن": ***(Covent-garden)*** سأنضم إليها وأعود إلى الرقص..

مركيزة ترقص على المسرح؟

أوه! كلاّ، يا ماما، سأستعيد اسمي الأول، عندما كنت شابة.

اسم أبيك؟ وهل تفكرين بنشر اسم السيد "كاردينال" وجرجرته على خشبات المسارح؟ آه! أبداً ويا للعجب، أبداً لن يكون ذلك! وإذا بدأت ترتكبين الحماقات فليكن ذلك تحت اسم المركيز.. وليس تحت اسم أبيك!

ولأنها كانت تقلقني كثيراً بكل هذه الأفكار الجنونية. فقد

احتجزتها في الغرفة، وأغلقت عليها الباب بالمفتاح، عندما ذهبت أنا والسيد "كاردينال" في المساء إلى حيث سيلقي محاضرته، لأني كنت أخشى أن تعمد إلى الهرب من جديد.

ووصلنا إلى المكان الذي يُعقد فيه المؤتمر، لكي يلقي السيد "كاردينال" محاضرته.. كان كل شيء هناك جميلاً، يا صديقتي العزيزة، جميلاً جداً! كان الجميع سكان "ريبومون" هناك.. ولكن، للأسف! لم يكن موجوداً أحد سوى سكان "ريبومون"..

مع أنّ السيد "كاردينال" كان قد أرسل بطاقات دعوة إلى رؤساء تحرير جميع صحف باريس.. ولكن لم يأتِ أحد منهم. فهؤلاء هم الباريسيون، وازدراؤهم الشديد بالريف وبجميع المقاطعات!

وكان السيد "كاردينال" قد عمل على وضع تمثالي "فولتير" و"روسّو" النصفيين على المنصّة، هديتي "بولين" و"فيرجيني"، وقد وضعا على قاعدتين شبيهتين بالرخام. وجلس السيد "كاردينال" في الوسط بين التمثالين.. وكان له، بهذا الخصوص تعليق ظريف: فقد قال إنه صلة الوصل بين هذين الرجلين العظيمين، وإنه يعمل على إجراء المصالحة بينهما.. لأنهما، على ما يبدو لك لم يكن أحدهما يطيق الآخر، وأنهما ظلاً طيلة حياتهما، يتبادلان المشاحنات والحماقات.. ولم يصبحا سواسية وعلى اتفاق، سوى بعد موتهما، حيث ظهر أنهما متشابهان بكل شيء..

أمّا إذا كان لمحاضرة السيد "كاردينال" تأثير كبير على الذين استمعوا إليها، فهذا لا أعرف عنه الشيء الكثير. لم يكن ذلك أي

نوع من التأثير تماماً، كان لها أكثر وأفضل من ذلك، فقد أحدثت دهشة وذهولاً. وقد توقّع ذلك السيد "كاردينال". فقد قال لي، بعد أن أعاد قراءة محاضرته في اليوم السابق: "إنها أقوى وأصعب من أن يفهموها، ولكنّ كلامي موجّه هذه المرة للخارج، إنه موجّه إلى فرنسا، بل وإلى أوروبا بأكملها. وهذه المحاضرة سأوصي بطباعتها.."

محاضرته ستطبع، ونرى اسمه على غلاف أحد الكتب، كانت هذه أيضاً إحدى طموحات السيد "كاردينال".

وإذن! فقد كان السيد "كاردينال" مصيباً وعلى حق، كما هي عادته على الدوام. وأعتقد أنّ الذين حضروا المؤتمر لم يفهموا الشيء الكثير من المحاضرة، ولكنهم كانوا يصفقون، بل ويصفقون أكثر لأنهم لم يكونوا يفهمون شيئاً، فقد كانوا مسرورين بسماعهم أشياء فوق مستواهم، ولا تطالها مداركهم، وكان يطربهم أن يقولوا لأنفسهم إنّ هذا قد كُتب وقيل لهم ومن أجلهم، وإن كانوا لا يفهمونه، فإن هذا لم يمنعهم من أن يفتخروا عندما يفكرون بأنّ من كتب ذلك الكلام وألقاه كان يعتقد أنهم جديرون بفهم كلام على هذا المستوى الرفيع.

وبالإضافة إلى ذلك، فانّ ما حدث معهم، سبق أن حدث معي أنا أيضاً، ذات مساء، في "المسرح الفرنسي" الكائن في شارع "ريشليو". كان السيد "كاردينال" قد قال لي: "يجب أن تشاهدي إحدى المسرحيات" وكرّر ذلك مراراً. وذات مساء، ذهبنا سوية إلى "المسرح الفرنسي" ولابدّ لي من الاعتراف أنّ ذلك لم يعجبني ولم يسرني،

ولكن، على أية حال، كانت، جملاً كبيرة وطويلة، تلك التي كان يلقيها الممثلون، دون أن يلتقطوا أنفاسهم.. وكنت ألاحظ أنها تلقى بشكل جيد، وأنها تتضمن أفكاراً عظيمة. ولكني كنت أشعر بالملل، أوه! نعم، وبشكل شديد ومزعج! ولكني، مع ذلك.

كنت أبدي إعجابي، وأبديه عن ثقة تامة.

وبعد انتهاء المحاضرة وانفضاض المؤتمر، رافق الناس السيد "كاردينال" إلى منزله بأبهة تليق بالمنتصرين، كان هنالك حملة المشاعل، وفرقة موسيقية تسير في مقدمة الموكب وهي تعزف الألحان الوطنية. وكان يمكن ألاّ تكون هنالك في حياتي كلها أمسية أجمل من تلك الأمسية، لو لم أكن طيلة الوقت، وأنا أسير في الطريق، أفكّر بابنتي، التي تركتها محتجزة ضمن غرفة مغلقة في المفتاح، هنالك، في المنزل.

وسرّني أني وجدتها مرتاحة وهادئة تماماً، وقد استعادة رقتها الطبيعية. وأخذت تدرك أنها مضطرة للعودة والاحتفاظ بمركزها بين أفراد الطبقة الراقية في فلورنسا، وأنّ ليس لها الحق بأن تلوّث بمغامراتها اسم والدها، وأن تسيء إلى سمعته. وكانت مقتنعة بأنها ستعود لتصبح، في حدود الممكن، زوجة صالحة ومخلصة لزوجها.

وفي اليوم التالي، سافرنا، نحن الاثنتين، إلى باريس. وكانت أول فكرة تبادرت إلى ذهني، هي إجبار المركيز على الحضور ليطلب "فيرجيني" مجدداً من السيد "كاردينال". ولكني عندما أمضيت النظر في ذلك، بدا لي أن فيه من المساوئ أكثر مما فيه من الفوائد

والمزايا: لأنه، في هذه الحالة، لا بدّ من شرح الموضوع، وإيراد بعض التفسيرات، الأمر الذي يمكن أن يسبب صدمة للسيد "كاردينال"، الذي لم يكن يعرف شيئاً عن هرب "فيرجيني" مع ذلك المغني المشعوذ.

عند ذلك دبّرت طريقة أخرى، كانت أفضل، وقد نجحت تماماً.. آه! ذلك لأنه في أزمات كهذه، يتفتّح ذهن وخيال الأمهات، في معظم الأحيان. وذهبنا أنا و"فيرجيني"، وتناولنا طعام الغداء في مطعم قريب من محطة "ليون" وفي الساعة الواحدة إلاّ الربع، قلت لفيرجيني: انتظريني هنا، سأذهب بمفردي لملاقاة المركيز، لأنه لا ينبغي أن يبدو عليك أنك أتيت مسرعة لكي تستقبليه.. ولا يجوز الاعتراف بالأخطاء.. وبخاصة إذا كنا قد ارتكبناها، فعلاً.

وعندما أشارت الساعة إلى الواحدة، كنت في المحطة، أنتظر الزوج في المكان نفسه الذي انتظرت فيه، بالأمس.. أوف، الخلاصة: الآخر..

آه! وقد لاحظت في الحال أننا نستطيع أن نفعل بالمركيز ما نريد، وأنه لا يزن مثقال ذرّة: فقد شحب وجهه تماماً، عندما رآني لوحدي، وصاح بأعلى صوته:

وفيرجيني! أين فيرجيني؟!

كان لا يزال يناديها، باسمها السابق ...

لقد نجونا! انه لا يزال مغرماً بها! وأنا لست سوى غبية كبيرة، وأعرف ذلك، ولا أعلل نفسي بالأوهام في هذا الشأن.. ولكني ما زلت

أتمتع على الدوام بميزة.. كانت بمثابة اختصاص لديّ، في الأوبيرا.. كنت أستطيع أن أتبيّن بسرعة فيما إذا كان أحد الرجال مغرماً حقاً أم غير مغرم.. لدرجة أنّ أمهات أخرى غالباً ما كنّ يستشرنني بشأن بناتهن.. ويقلن لي "يا سيدة "كاردينال"، أنت التي لديك تلك النظرة الشافية، تعالي وانظري قليلاً.. نريد أن نعرف رأيك."

عند ذلك، أذهب، فألقي نظرة، وأجيبهم: "هذا الرجل مغرم ومتمسك جداً بالفتاة". أو على النقيض من ذلك: "كلاّ، هذا ليس لديه حبّ حقيقي، وكل ما لديه عبارة عن هوى، ونزوة عابرة."

وباختصار كانت لديّ بصيرة نافذة في هذه الأمور... وأعلم جيداً، أنّ هذا لم يعد يحصل في دار الأوبيرا، وكان يحصل في الأوساط الراقية.. ولكنّ الحبّ هو الحبّ نفسه في كل زمان ومكان.. إن كان مع راقصة أو كان مع مركيزة، والحبّ يجعل دائماً من الرجل، المغفل نفسه، تلك هي الحقيقة.

لقد فضح المركيز نفسه: كانت نظرتهِ الأولى تبحث عن : "فيرجيني"، وهكذا فقد تفوّقت عليه، ولو أنّ "فيرجيني" حضرت في تلك اللحظة، لكان الأمر قد سوّي في الحال، ودون التفوّه بأي كلام، ولم يكن عليها إلا أن تبدو لكي تستعيد حظوتها وسلطتها.. ولكني لم أكن أملك الجرأة لتنفيذ ذلك.. كنت أخشى من حصول مشاحنة أمام كل الناس. وقد سبق لي أن أحدثت جلبة في المحطة، عندما تشاجرت مع المغنّي في اليوم السابق. فلو أني أحدثت فضيحة في اليوم التالي، لقال الناس فيما بينهم: "آه! ما هذه السيدة البدينة التي

تأتي كل صباح لتتشاجر مع المسافرين القادمين بالقطار السريع من فلورنسا؟"

طمأنت المركيز، وقلت له إنّ "فيرجيني" بأمان وهي تحت جانحي.. وأجلسته على المقعد نفسه الذي أجلست عليه "فيرجيني" وجعلتها تعترف لي بكل شيء في اليوم السابق. وأجرينا بعض التوضيحات، وكانت حارّة تلك التوضيحات!.. وحالما اطمأنّ المركيز على "فيرجيني" أراد أن يتراجع ويعاود تكبّره وتعاظمه.. وأخذ يقول لي إنه لا يمكن أن يرى "فيرجيني" أبداً، بعد الآن، وإنه لم يأت إلى باريس إلاّ لتسوية الأمور بشكل مناسب، وإنه على استعداد لتقديم راتب ضخم، وظلّ يردّد عبارته الشهيرة التي يقول فيها إنه لا يريد أن يصبح أضحوكة أهل فلورنسا.

عند ذلك انفجرت أنا، وكان هنالك ما يدعو إلى ذلك.

أضحوكة أهل فلورنسا! آه!، ولكن في زمن زوجتك الأولى، إنما كنت فعلاً، أضحوكة أهل فلورنسا. وأتيت تبحث عن العزاء والسلوى في باريس وبين راقصات فرقة "الباليه". كانت منزعجة زوجتك الأولى.. كانت منزعجة ومتضايقة جداً! ولكنها كانت من الطبقة الراقية، وكل شيء مباح ومسموح به لنساء الطبقة الراقية.. ومن الظرافة والأناقة لديهن أن يتّخذن عشاقاً للتسلية واللهو.. أما لدى بناتنا فإنّ ذلك يعتبر جريمة! هذا هو المجتمع، وهذه هي أحواله! آه! إن السيد "كاردينال" محق تماماً بأن يقلبه ويجعل عاليه أسفله، رأساً على عقب. ولو أنك أخذت "فيرجيني" من الدير، لكان أمراً طبيعياً أن

تخدعك وتخونك، وما كان هذا ليدهش أحداً، ولكن لأنك أخذتها من دار الأوبيرا، ومن فرقة الرقص، فلا شيء يمكن أن يسمح لها به، لا شيء يباح لهذه الفتاة المسكينة.. ولأنها، أتت بالمصادفة من فلورنسا إلى باريس في القطار نفسه الذي أتى فيه مغنّ شرير، أخذت تصرخ وتولول، كأن هنالك من يسلخ عنك جلدك. وماذا تريد أن يكون قد حدث في ذلك القطار السريع الذي يسير بسرعة ثمانين كيلو متراً في الساعة، ولا يتوقف إلا لفترة قصيرة لا تتعدّى العشر دقائق، وفي أوقات متباعدة؟.. إنه لم يحدث شيء على الإطلاق، وأنا التي أقول لك هذا، أنا أمها! فما الذي يجب القيام به قبل كل شيء؟ يجب تحاشي الفضيحة! ومن أجل ذلك يجب أن تصطحب "فيرجيني" وبأسرع ما يمكن. وأنا لست أكثر منك رغبة بإثارة الفضائح، لأنها ستطول السيد "كاردينال" ويصيبه رشاشها، ولا ينبغي أن يحصل شيء مثل هذا للسيد "كاردينال" وإذا لم تستردّ "فيرجيني" وتصطحبها في الحال، فسوف تحدث بعض المشاكل. وهل تعلم ماذا ستفعل؟ إنها ستعود لممارسة الرقص، وتصعد على المسارح، وترتكب الأخطاء والحماقات، وليس تحت اسم السيد "كاردينال" المحترم.. أوه! كلا! لن يكون الأمر كذلك.. بل تحت اسمك أنت.. فبعد أن تتزوج الفتاة، لم تعد حماقاتها تُنسب إلى أسرتها، بل إلى زوجها.. وعند ذلك إنما تصبح فعلاً، أضحوكة أهل فلورنسا!

ويبدو أن هذا الدليل الأخير قد أثّر به، عند ذلك قمت باستغلال العاطفة، وقلت له:

"فيرجيني" على بعد خطوتين من هنا.. تعال.. وسيفتح كل منكما ذراعيه للآخر. لقد ارتكبت بعض الأخطاء هذا ممكن، ولكن أنت أيضاً، فعلت ذلك فهي للمرة الأولى، تضرب من قبل شخص غير أمها. وقد سبب هذا القلق والاضطراب للفتاة.. وإذا كانت عودتك لوحدك معها يسبب لك إرباكاً إزاء معارفك في فلورنسا.. فأنا على استعداد لمرافقتكما إلى هناك، إذا كنت ترغب في ذلك، مع أني يصعب عليّ أن أفارق السيد "كاردينال" ولكني مع هذا يمكنني أن أذهب.. وأودّ أن أعرف من الذي سيجرؤ على الاعتراض، أو على توجيه أية إساءة، عندما يرى المجتمع الإيطالي الراقي "فيرجيني" وهي تعود مستندة على ذراع أمها..

وكان تأثّره يزداد شيئاً فشيئاً. وأجابني أنه إذا ما عاد إلى هناك مع "فيرجيني" فهو يفضل أن يعود معها بمفرده، وأنه ليس بحاجة لي..

وأخيراً بعد ربع ساعة، كان كلّ منهما يضم الآخر بين ذراعيه ويعانقه بحرارة.

وبعد ذلك، ذهبا للإقامة سوية في "الفندق الكبير" لمدة شهر. وكان هذا أيضاً بناءً على نصيحتي. وقد أقاما في جناح يقع في الطابق الأول، وعلى الشارع الرئيسي. وظهرا سوية في كل مكان: في المنتزهات وفي المسارح، وأقاما حفلات العشاء الكبرى. وتحدثت الصحف في زاوية: "أخبار وأصداء الطبقة الراقية" عن وجودهما في باريس، وعن النشاطات التي يقومان بها، ونقلت ذلك الصحف الإيطالية، دون أن تعرف فلورنسا شيئاً عمّا كان قد حدث في بداية الأمر.

وعدت مساءً، إلى "ريبومون" وانتهى ذلك اليوم الرهيب، بالنسبة لي، في هدوء البيت العائلي، بالقرب من السيد "كاردينال" الذي كان يصحح "بروفات" طباعة محاضرته. ولكن لا بأس بذلك فبالنسبة لزوجة ولأم، هذا بالحقيقة يعني أنّ كثيراً من الأمور تحدث معاً وفي وقت واحد.

أظلّ مخلصة لك من كل قلبي:

"زوي كاردينال"



الألعاب النارية

"ريبومون"

٥ أيار "مايو" ١٨٨٠.

أحداث أخرى يا صديقتي العزيزة، إنها لمأساة حياة السيد "كاردينال" فمنذ سنتين، أي منذ إلقائه محاضرته الشهيرة في الذكرى المئوية لوفاة "فولتير"، أخذ يذوي ويضعف ويتألم. فقد تقدّم بخمسين طلباً من أجل توظيفه. وأرسل أكثر من عشر رسائل إلى نائب دائرتنا. دون أن يتلقى أيّ ردّ أو جواب، وفي رسالته الأخيرة إلى النائب، أشار إلى وجود وظيفة تناسبه تماماً: "المفتش العام لعقلية سكان الأرياف" وهي وظيفة تقضي بتنشيط وتحريك الخمول الذي يخيّم على المناطق الريفية. ولكن لا شيء، لا جواب، ولا حتى إشعار باستلام الرسالة.

فاستبدّ الغضب، أخيراً، بالسيد "كاردينال" وتناول القلم وكتب للنائب إحدى تلك الرسائل القاسية، التي يجيد هو وحده

كتابتها وقال له فيها ان الأمر قد أصبح عبارة عن مزاح وسخرية، وأنه من غير المسموح به أن يعامل بمثل هذا الازدراء مواطن يحظى بثقة السكان بدليل فوزه في الانتخابات العامة. وأنّ لا داعي لبذل الجهود الكثيرة لاختيار نائب وإنجاحه، إذا لم يهتم هذا النائب قليلاً بشؤون ناخبيه، البسيطة.

وهذه المرة تلقّى السيد "كاردينال" جواباً، ولكن ياله من جواب! وهذا نصّه الحرفي: "أيها السيد، إني أنصحك بأن تمتنع عن الكتابة لي كثيراً بهذا الشكل، وإذا أردت أن تعرف سبب عدم ردّي على رسائلك، فما عليك إلا أن تمرّ على مكاتب المحافظة، وأن تحاول أن تضع حداً للشائعات التي ليست في صالحك.."

شائعات ليست في صالح السيد "كاردينال"! فأنت تدركين كيف قفز من مكانه، عندما قرأ هذه العبارة، وصاح بأعلى صوته:

أعرف ممّن أتت هذه الضربة: إنها من اليسوعيين! فأنا أعرف يد اليسوعيين وطريقتهم. هنالك دسائس ومكائد تحاك ضدي، ولكني سأحبطها كلها..

وأراد أن يذهب في اليوم نفسه إلى مقر المحافظة. كما رغب في أن يصطحبني معه. لأنه كان يصرّ على أن يُفحم ويُخزي الذين وشوا به وافتروا عليه، أمامي وبحضوري. وحضرنا عربتنا الصغيرة.. وهي هدية من "فيرجيني" بمناسبة عيد ميلاد السيد "كاردينال" الأخير.. وهانحن ننطلق سويّةً باتجاه "فيرساي". ووصلنا فلقينا هناك حاجباً، هو الوقاحة بعينها.

قال له السيد "كاردينال":

السيد المحافظ.

فردّ عليه الحاجب، دون أن يرفع نظره نحوه، وظل يتابع قراءة جريدته، وهي جريدة رجعية.

السيد المحافظ لا يستقبل أحداً.

إنه سيستقبلني، أنا.

ولن يستقبلك أنت، أيضاً.

أرجوك أن تكون مهذباً.. أنت لا تدري من أنا.

ومن أنت؟

السيد "كاردينال" عضو مجلس بلدية "ريبومون".

والمحافظ، وهو جمهوري، يجب عليه أن يستقبل على الدوام، الفائزين بالانتخابات العامة، وأن يكون تحت تصرفهم، لكي يستمع إلى ما يتقدمون به من شكاوى ومطالب.

ولكن الحاجب أخذ يقلّب صفحات جريدته، حتى دون أن يردّ.. وليس لدى أحد فكرة عن وقاحة هؤلاء الناس عندما يحصل أحدهم على وظيفة! عند ذلك انفجر السيد "كاردينال".. وقال للحاجب بأنه سيعمل على طرده، وأنه سيقابل المحافظ، بالرغم من محاولته أن يمنعه من ذلك، فحاولت أن أهدّئه ولكن دون جدوى.. فقد ظلّ يصرخ ويعربد محتجاً. وفُتح أحد الأبواب، وبدا منه شاب قصير أشقر:

"ماذا هنالك. لماذا كل هذا الضجيج؟"

فقال له السيد "كاردينال":

أنا عضو مجلس بلدي.. انظر ماذا كتب لي نائب دائرتنا.. وقد حضرت إلى هنا لتبديد الوشايات وتحويلها إلى غبار.

كان الشاب القصير الأشقر لطيفاً جداً، مهذباً جداً. أدخلنا إلى مكتبه وقال للسيد "كاردينال":

سأنظر في إضبارتك.

وأحضرت إضبارة السيد "كاردينال" بغلافها الأزرق، وهي ضخمة تحتوي جميع طلباته التي أرسلها للحصول على وظيفة، وعرفتها بعد ذلك.. وعن بعد أيضاً رأيت في الإضبارة رسالة كبيرة مكتوبة على ورقة: كتب عليها بأحرف الطباعة، عبارة : "إدارة الشرطة".

وأخذ الأشقر يقرأ تلك الرسالة، وكنا نرى جيداً، أنا والسيد "كاردينال" ضحكة مكتومة بين شفتيه.

فسأله السيد "كاردينال":

ما هذه؟

لا شيء، لا شيء، إنها لا شيء.

لقد ضحكت في سرّك، أيها السيد. ولي الحق بأن أعرف لماذا ضحكت في سرّك.. ومن حقي أن أعرف ماذا كُتب في إضبارتي.

إنها مذكرة سرّية.

لا يمكن أن يكون هناك مذكرة سرّية في إضبارتي، وبحقي أنا، فقد عشت في وضح النهار، تحت أعين ونظر أبناء وطني. وناضلت وتحملت الآلام في سبيل وطني ومن أجله. ولن أخرج من هنا قبل أن أقرأ هذه الرسالة. أعطني إياها.

فصرخ الأشقر الصغير:

آه! أخيراً، إنك تزعجني:

"خذ.. واقرأ.. بما أنك نصرّ على معرفة كل شيء.. اقرأ لتعرف لماذا لم يردّ أحد على طلباتك ولا على رسائلك.

وأعطى الرسالة للسيد "كاردينال" الذي قال لي عند ذلك:

نظارتي ليست معي، اقرئي يا سيدة "كاردينال".

فقال الموظّف الصغير، بحدّة:

كلا، لا جدوى من قراءة السيدة للرسالة.

عند ذلك نطق السيد "كاردينال" بإحدى تلك العبارات التي تعوّض على مخلوقة مسكينة مثلي كل تضحياتها وإخلاصها وتفانيها:

السيدة "كاردينال" كانت على الدوام الرفيقة المخلصة والشجاعة لحياتي بكاملها. ولم أكتم عنها أيّ سرّ في الماضي، ولن أكتم عنها سرّاً في المستقبل.

اقرئي، يا سيدة "كاردينال" اقرئي!

فأبدى الموظف الأشقر حركة، كأنه يقول بها: "آه! فليتدبروا أمرهم!.."

وبدأت القراءة، وإليك يا صديقتي العزيزة، الكلام الفظيع الذي قرأته:

"السيد "كاردينال" شخص تحوم الشكوك حول أخلاقه" فخنقني الغيظ، وكتم أنفاسي، وأردت التوقّف عن القراءة..

ولكن السيد "كاردينال" الذي احتفظ بهدوئه وبوقاره، قال لي، بتلك المهابة، التي قلّ من يتحلى بها مثله:

"تابعي القراءة تابعي..!"

فتابعت: "ويبدو أن البحبوحة التي يتمتع بها ناجمة عن مصادر غير شرعية"

ورغبت أن أتوقف مرة أخرى، ولكني شعرت بأنّ ذراعي تمسك به آلة هي أشبه بالكماشة أو الملزمة.. ولم تكن تلك سوى يد السيد "كاردينال".. الذي قال بصوت قويّ وجهوري:

سيدة "كاردينال" أني آمرك أن تتابعي القراءة، دون توقف، حتى النهاية.

آه! يا صديقتي العزيزة، من لم يرَ السيد "كاردينال" في ذلك الموقف، وفي تلك اللحظات، فهو لم يرَ شيئاً، ولا يعرف ما هي رباطة الجأش، ولا ما هو التحكم بالأعصاب.

وتابعت قراءة المذكرة:

"وله ابنتان كانتا تعملان راقصتين في دار الأوبيرا: الكبرى تعيش في الخارج، حياة المعاشرة والتسرّي مع مركيز إيطالي. والصغرى، التي اتخذت لنفسها اسم "بولين دوجيرالداس" مستسلمة على نطاق واسع لحياة الدعارة والإباحية".

نعم، يا عزيزتي، كانت لديّ القوة لقراءة هذا الكلام الشنيع بصوتٍ عالٍ على مسمع من السيد "كاردينال".

"فيرجيني" يقال عنها أنها تعيش حياة المعاشرة والتسرّي، عندما تكون "مركيزة" أكثر عراقة وأصولاً من أية "مركيزة" من مركيزات "ضاحية سان جيرمان".. ويقال عن "بولين" أنها مستسلمة لحياة الدعارة على نطاق واسع!.. ففي هذا المجال يمكن أن يكون ذلك على نطاق واسع، وبكل سهولة من أجل..

وفي الحال، بعد أن سمع السيد "كاردينال" هذه العبارة السخيفة: "على نطاق واسع"، نهض وقال للأشقر القصير، بهدوء غريب يثير الإعجاب:

إني لا أتنازل أيها السيد، لمناقشة وشايات كهذه.. من أين أتت هذه المعلومات؟ من الشرطة.. أي من مفوض شرطة من بقايا العهد الإمبراطوري.. وهذا ينفي أية قيمة لهذه الوثيقة ويبطلها.. وأنا سأنسحب، ولكن سوف تصلك أخباري، أنت وحكومتك.. تعالي يا سيدة "كاردينال" تعالي..

وخرجنا، وعلى الدرج، قلت له:

لماذا لم تردّ، وتنفي ما قيل عن "فيرجيني" كان بإمكانك أن تنفي ما اتُّهمت به "فيرجيني"..

نعم يا سيدة "كاردينال" بالنسبة لفيرجيني كان يمكنني أن أردّ، ولكن بشأن "بولين" لم يكن بإمكاني أن أردّ.. لذلك، يُفضل في هذه الحالة، توجيه النفي القاطع والإجمالي.. فهذا أكثر جدوى وأقوى تأثيراً..

وعندما عدنا إلى البيت، وقع السيد "كاردينال" في حالة من الانهيار واللامبالاة.. وذلك لأول مرة في حياته، وارتمى على إحدى الأرائك، وهو يقول:

انتهى كل شيء، سأتخلّى عن العمل بالسياسة، وعن كل مشاريعي!.. وما هي الجدوى من تضحية الإنسان بنفسه في سبيل بلاده، وعدم اكتراثه بعواطفه وانفعالاته، والتصرف كـ"بروتوس" حقيقي مع أبنائه؟ وهاهي مكافأتي، هاهي!..

وكدت التقط الكرة، واغتنم الفرصة لأقترح عليه أن نذهب لتناول عشاءً خفيفاً عند "بولين".. ولكنه كان قد استعاد كل قوّته، وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، بخطوات واسعة:

كلا، ثم كلا، إنني لن أتخلى عن أي شيء على الإطلاق. وهنالك الانتخابات العامة لتأخذ لي بالثأر. وبعد ثلاثة أشهر، ستجرى انتخابات المجلس العام، كنت متردداً بشأن ترشيح نفسي، بسبب

النفقات.. وكدت أتخلى عن المقعد للعمدة، ذلك الملكي المتخفّي.. ولكني سأنازعه عليه وأنتزعه منه.. وأرى أن جميع الوسائل صالحة من أجل تحقيق ذلك..

وسأعيّن.. سأفكر بكل هذا، في هذه الليلة، وغداً ستكون خطتي جاهزة. ولم ننم هذه الليلة، لا السيد "كاردينال" ولا أنا.

كان هو يبحث موضوع خطته، وأنا كنت أعاني من القلق ومن اضطراب في الذهن: كنت أسأل نفسي، أسبر أغوارها، وأستعيد ذكريات حياتي بكاملها، قائلة في سرّي: "هل قمت بواجباتك بشكل جيد، يا سيدة "كاردينال"؟ أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ أيمكن ألاّ تكون حياة السيد "كاردينال" شريفة؟ إن لم تكن حياته شريفة، فالذنب في ذلك يكون ذنبك، أنت زوجته، وفي تلك الحالة كان عليك أن تمنعيه من أن يعيش بتلك الطريقة إذا كانت غير مناسبة.. ولكني بقدر ما كنت أتوغل في أعماق ضميري، بقدر ما كنت أجده مستريحاً وراضياً.. يقال أنّ ليس هنالك سوى نمط واحد للأخلاق.. إنها سخافات ابتدعها الناس الأثرياء والمترفون الذين يربو دخلهم على مائة ألف ليرة. فهنالك أنماط من الأخلاق بقدر ما هنالك من أفراد. آه! لو أنّ السيد "كاردينال" كان رجلاً عادياً، نعم، كنت أعتبر مخطئة حقاً. ولكن بما أنّ السيد "كاردينال" كان بما هو عليه، فمن هو الذي يجرؤ أن يلومني لأني فعلت ما فعلته؟ كان ينبغي قبل كل شيء تأمين راحة السيد "كاردينال". كانت طباعه وأفكاره أسمى من أن يتقبّل القيام بعمل موظف صغير. وكبرياؤه أقوى من أن تجعله يقنع بكسب معيشته بشكل بائس، عن طريق قيامه بأعمال

ثانوية وتافهة. لم يكن يصلح إلا للمناصب العالية، المناصب التي تكون مهمة أصحابها الإدارة والقيادة..

لذلك كان على زوجته وعلى ابنته أن يتزحزحوا لكي يتيحوا له قدراً كبيراً من الاستقلالية، وليسمحوا له باستخدام ملكاته السامية، وهذا هو بالضبط ما قمنا به!"

وفي صباح اليوم التالي، كانت خطة السيد "كاردينال" قد وضعت وأصبحت جاهزة. وكان العمدة يستغل ثروته أكثر من أي وقت مضى. وقد زوّج إحدى بناته، في الأسبوع الماضي. ويوم الأحد التالي أقام حفلة كبيرة في حديقته: ألعاب وأسهم نارية في المساء، وفي النهار: "صاري الحلوى" سباق في الأكياس وسباقات أخرى، توزيع السكاكر والملبس، وقطع نقود تُلقى في الهواء ليلتقطها أطفال الناحية،.. الخ

وهذه الأعمال أثارت حفيظة السيد "كاردينال" وكان يقول أنها أعمال خسيسة ومذلّة، أخذت على عهد مخجل في تاريخ البلاد، وهو عهد الحكم الإقطاعي.

كانت خطة السيد "كاردينال" تقضي بأن يقيم يوم الأحد المقبل، حفل عشاء كبير لجميع أعضاء المجلس البلدي، باستثناء الرئيس، أي العمدة، وأن يقيم مهرجاناً للأسهم والألعاب النارية، ولكنه مهرجان ليس للأطفال وحدهم، بل سيكون للرجال أيضاً، لأنه مهرجان ذو مغزى فلسفي وسياسي، سيشكل تسلية وتظاهرة اجتماعية في آن واحد.

وصباح يوم الجمعة، سافرت إلى باريس. كان عليّ أن أشتري كثيراً من المواد والأشياء اللازمة لحفل العشاء الذي سنقيمه يوم الأحد، كما كان لابدّ من أن أوصي على الأسهم النارية.

وكان السيد "كاردينال" قد نظّم كل شيء وسجّله في مذكرة، عليّ أن أسلمها للسيد "روكجيري" وهي معنونة كما يلي:

"مذكرة من أجل تحضير أسهم وألعاب نارية معادية للأكليروس"

وكان ينبغي أن تعوّض اللوحة الختامية، بقطعة مركبة ومصنوعة بشكل يجعلها تمثل مدرسة ابتدائية، وفي أعلى بنائها يجب أن تظهر مكتوبة بأحرف نارية كبيرة، هذه العبارة:

"يسقط اليسوعيون"!

وعندما وصلت إلى باريس، ذهبت إلى شارع "مونتورغوي" لتأميم مشترياتي من الدجاج والسمك، ثم ذهبت إلى منزل "بولين" دخلت، فوجدتها لوحدها.

ألا أزعجك؟

أنت، ماما، أبداً. إني أنتظر الأمير، ولكن لا بأس سأقدمك له، وسيسرّ بالتعرف عليك.

أمير؟

نعم، وأمير حقيقي، ليس أمير للضحك.. كلا إنه أمير من أقدم

وأعرق الأسر المالكة في أوربا، وقريب جداً من العرش.. فقد قال لي البارحة: "ليس هنالك سوى شخصين بيني وبين العرش". إنه سيأتي بعد قليل، وسترين كم هو لطيف وبسيط، ولنلعب الورق، بينما يأتي.

ولعبنا الورق، وكنا في جولتنا الرابعة، عندما فُتح الباب فجأة، وأعلن خادم طويل القامة يرتدي الملابس السوداء، والبنطال القصير والجوارب الحريرية: "سمو الأمير!".

نعم يا صديقتي العزيزة، هذه هي الطريقة وهكذا تسير الأمور في منزل "بولين". ومهما قيل، فإنّ هذا يجعل قلب الأم يخفق بشدّة!.

وهاهو صاحب السموّ يدخل: شاب مدهش.. لم يبلغ العشرين، أشقر، مورّد الوجنتين..

وقالت له "بولين":

سيدي صاحب السموّ، هذه أمي.

آه! إني أؤكد لك بأنه مهذب جداً، هذا الشاب الصغير.. لأنّ هذه لم تكن هي المرة الأولى التي تقدمني فيها إحدى بناتي إلى أحد الأمراء، فقد حصل لي ذلك عدة مرات في حفلات العشاء أيام عملهما في دار الأوبيرا، لأنّه كان من عادتي عدم مفارقة ابنتيّ إلاّ في آخر لحظة، ولكني لم أكن أتغذى بالأوهام، وكنت ألاحظ جيداً أنّ الأمراء كانوا يفضلون ألاّ أكون موجودة هناك. كانوا يبدون تكشيرة بسيطة، أفهمها جيداً، وكانت تعني: "حسناً، الأم، لابدّ من أن نتحمّل وجود الأم".

إيه! ولكنّ هذا لم تبدر منه أية تكشيرة، فقد بدا ظريفاً ولطيفاً جداً، وانحنى كما ينبغي أن يفعل الرجل أمام المرأة أيّاً كانت، وقال بلكنة غريبة: "هذه هي السيدة "كاردينال" العزيزة".

وكنت أفكر في سرّي أنه لابدّ أن يكون مغرماً جداً ببولين حتى يكون لطيفاً معي إلى هذه الدرجة.. لأنّ هذه أيضاً ملاحظة تحققتُ منها في حياتي كأم، وهي أني أستطيع أن أحصي وأقيّم حبّ الآخرين لابنتيّ، حسب درجة مراعاتهم ومجاملتهم لأمهما. وقد حدث عدة مرات أني قلت لفيرجيني:

انتبهي يا ابنتي، وخذي حذرك، فهذا الرجل لا يحبك بصورة جدية، وهو لا يجامل أمك ولا يحسن التصرف معها.

أما الأمير فقد أحسن التصرف معي وجاملني كثيراً، وقال لنا: لا تنزعجوا، تابعوا اللعب. وتابعنا لعبتنا وكان يقف وراء "بولين" فأخذت تستشيره: "أكنت تلقي هذه يا سموّ الأمير" ولكنه من وقت لآخر، كان يهمس في أذنها، ممازحاً، كلمات تنم عن الألفة والمودة، مثل: "أنت غبيّة".. أنت لا تفقهين شيئاً في هذه اللعبة.. وفي كل مرة، كانت تحصل على "ثمانين الملوك" تعلن قائلة: "ثمانون بابا" وهي تنظر إليه شذراً.. بإشارة رقيقة إلى وضعه، وكانا مسرورين جداً كليهما، ويضحكان ببهجة وحبور، عندما تتردد تلك العبارة: "ثمانون بابا"! فكم هو جميل الشباب!.. وكم هو جميل الحب!..

ومن جهتي أنا، فقد شعرت بأني رجعت إلى عالمي، وتركت الوقت يمر.. ونسيت كم كانت الساعة.. ولكني رفعت أنفي فجأة

ونظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار: كانت تشير إلى الرابعة!.. وقد قلت للسيد "كاردينال" بأني سأعود في قطار الرابعة والنصف. ولابدّ أن يكون في محطة "سان جيرمان" ينتظرني في عربتنا الصغيرة. وهل يجوز أن أجعل السيد "كاردينال" ينتظر؟ كلا، إن هذا لا يجوز أبداً!.. حتى ولو كان من أجل البقاء برفقة أحد الأمراء، لأنّ الأمير، بعد كل شيء ليس سوى أمير، وهو رجل يدين بكل شيء لمولده، في حين أنّ السيد "كاردينال" رجل لا يدين بشيء إلاّ لذاته.

كنت قد نسيت الأسهم النارية، ولم يعد لديّ وقت للذهاب إلى مخزن السيد "روكجيري" فشرحت الموضوع لبولين. وهنا بدا لطف الأمير وظرفه: فقد تعهد بتأمين الطلب. ولكن كان ينبغي أن نقول لهذا الأمير، وهو وريث أسرة ملكية، أنّ أسهمنا النارية يجب أن تتضمّن عبارة ضدّ اليسوعيين، وأعطيته مذكرة السيد "كاردينال" فقرأها، ووجد أن مضمونها مبتكر وطريف جداً.

كان هناك أمراً آخر يربكني: هو مسألة الثمن. وقد أخجلني أن أدع هذا الشاب يدفع ثمن أسهم نارية لا يتفق مضمونها مع أفكاره. ولكني عندما حاولت أن أفتح فمي لأتكلم في هذا الموضوع، قالت لي "بولين":

أنت غبية يا ماما، دعي الأمير يتصرّف. فهذه الترهات لا أهمية لها.

فلم ألحّ على شيء من ذلك، لأني منذ البداية، أرى في الأساس، أنه من السّخف أن يدفع المرء بنفسه ثمن الأشياء التي يمكنه أن يجعل الآخرين يدفعونه. وهذا هو أحد المبادئ التي لقّنتها لابنتيّ.

وعندما عدت إلى "ريبومون" وجدت السيد "كاردينال" في المحطة، فقلت له اني أوصيت على كل شيء: الدجاج، السمك، الحلويات والأسهم النارية.. وأنّ كلّ هذا سيصلنا صباح الأحد. وبالفعل فقد وصل كلّ شيء. وأحضر الأسهم النارية اثنان من مستخدمي السيد "روكجيري".. وهي أسهم نارية مدهشة كانت تملأ العربة، ولابدّ أنها تساوي على الأقل، ألفي فرنك.

ونزل السيد "كاردينال" إلى الحديقة لبعض الوقت، ليدلّ المستخدمين على المكان الذي سنطلق منه الأسهم النارية. ولكنه كان مشغول البال جداً، فعاد بسرعة إلى البيت لأنه كانت قد خطرت له أيضاً فكرة أخرى في الليل: وهي أن يلقي كلمة، بعد أن يتبادل الأنخاب مع المدعوين، وذلك بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، وهذا على الطريقة الإنكليزية، ويسمى هناك: ***(Spitche)***. والسيد "كاردينال" أصبح يعرف الآن كثيراً من كلمات ومفردات جميع اللغات. وهذا ال ***(Spitche)*** أو هذه الكلمة التي سيرتجلها السيد "كاردينال" في تلك الأمسية، كان منهمكاً في كتابتها، لأنه يجب عليه أن يحفظها بعد ذلك غيباً وعلى ظهر قلب. ويبدو أنهم هناك، في إنكلترا، لديهم طريقة بالتكلم وإلقاء الخطب تختلف قليلاً عن طريقتنا: فهي لا تعتمد على الفصاحة والبلاغة، بل هي عبارة عن حديث، يعتمد على الدعاية: ***(lihumourre)***[1] وهي أيضاً كلمة

---

[1] (Li humour): الدعابة، وقد أوردها المؤلف هكذا: (Li humourre) عمداً، ساخراً من السيدة "كاردينال" التي صوّرها منذ البداية كامرأة ساذجة قليلة الحظ من الثقافة. (المترجم).

يستعملها السيد "كاردينال" الذي يريد أن يدخل إلى فرنسا هذا النمط من الأحاديث السياسية.

وعند الساعة السادسة والنصف، يحلّق المدعوون حول المائدة. وتمّ كل شيء على ما يرام وبصورة رائعة: كان العشاء رائعاً فخماً: الدجاج، السمك، كل شيء كان طيباً. وكان للكلمة التي ألقاها السيد "كاردينال" تأثير عظيم.

وفي الساعة التاسعة والنصف نزل الجميع إلى الحديقة، لمشاهدة الألعاب النارية. وقد بدأت بشكل مدهش، يثير الإعجاب: الصواريخ، الشهب النارية المختلفة الألوان، الأسهم النارية الدوّارة، اللهب المنبثق والمتدفق، ولم يُخفق أو يمتنع أي شيء منها عن الإطلاق، مع أنه، كما تعلمين، يحدث عادة أنّ بعض الأسهم النارية، تخفق ولا تنطلق. وكان الطقس مناسباً، وكما كنا نتمناه: فلا ضوء قمر ولا رياح. وفجأة، ها هو بناء ناريّ يرتفع من بين الأشجار.. كانت هي تلك القطعة المركبة والمصنّعة: وقد بدت وهي ترتسم بعض الأعمدة والأبواب، وشاهدها الجميع، وكانوا يقولون: "آه! ما أجمل هذا! وكم هو أجمل مما رأيناه عند العمدة."

وكان السيد "كاردينال" يصيح بهم:

انتظروا! لم تروا شيئاً بعد!.. انتظروا لتروا الواجهة!.. وما هو مكتوب ومنقوش عليها!..

وانتصبت الواجهة، وأُنيرت العبارة المنقوشة عليها، ولكن يا

للفظاعة! هل تعلمين ماذا كُتب بأحرف من نور ونار في أعلى الواجهة، بدلاً من : "يسقط اليسوعيون!" لقد كان ما كتب هي عبارة:

"عاش الإمبراطور!"

فكيف حصل هذا؟ كنت لا أعرف شيئاً عن ذلك بعد. فهل كان مزاحاً من الأمير الصغير، الذي حلا له أن يرسل لنا أسهماً نارية مؤيدة لبونابرت، بدلاً من أسهم نارية معادية للأكليروس؟ لا أستطيع تصديق هذا عن شاب متميز جداً، ويحب "بولين" إلى ذلك الحدّ، وهل كان هذا نتيجة خطأ من قبل السيد "روكجيري"؟ فهو يملك مخزناً كبيراً، لابدّ أنه يوجد فيه أسهم نارية صالحة لجميع المناسبات وتوافق جميع المبادئ والآراء. ويمكن أن يكون هنالك من أخطأ باختيار النوع المطلوب. وربما كانوا يحاولون بذلك تصريف بضاعة كاسدة عندهم، لا يشتريها أحد؟ ولابدّ أن كثيراً من الأسهم النارية قد بقيت لديهم في فترة الرابع من أيلول "سبتمبر" عندما أُعلن عن سقوط حكم عائلة الإمبراطور "بونابرت". ولم يكن مقبولاً إرسالها، لأنّ صاحب المخزن لابدّ أن يدرك أنّ الناس ستلاحظ ذلك وستستغربه.

يبقى أن الجمهور عندما رأى هذه الكلمات:

"عاش الإمبراطور"

تسطع على واجهة المدرسة، أخذ يصرخ، ويصفر.. فالناس هنا ليسوا من مؤيدي "بونابرت".. وكالأسد الهصور، ألقى السيد "كاردينال" نفسه وسط النار، وكان الحرّاقون يصيحون به: "لا

تقترب! لا تقترب! أنت غير معتاد على هذا العمل، ستؤذي نفسك!"
ولكنه لم يكن يسمع شيئاً، فالغضب أفقده صوابه، وأراد أن يقلب كل شيء، رأساً على عقب.. واندفعت أنا وراءه عبر اللهب، وجذبته من بينه بينما كنت أشم رائحة الاحتراق وهي تفوح من طوق شعري المستعار، ومن خصلات شعري ورابط طاقيتي.

وانصرف جميع المدعوين، ساخطين وغاضبين. وأخذ السيد "كاردينال" يركض وراء الناس، ويصيح بهم: "ارجعوا! عودوا لسأوضّح لكم الأمر، كان يجب أن تكون العبارة هناك: "يسقط اليسوعيون!.."

ولكن لم يشأ أحد أن يصغي إليه. وبقينا وحدنا، السيد "كاردينال" وأنا، وسقط كالمنهار المحطّم، على أحد المقاعد. وعندما رأيته في هذه الحالة من الإعياء واليأس، تجرأت لأول مرة في حياتي على مخاطبة السيد "كاردينال" بهذه اللهجة، إذ إني قلت له:

اسمع، إذا كان هذا يشكل انهيار طموحاتك السياسية، فربما كان ذلك الخطأ الذي حصل بشأن الأسهم النارية، نعمة من السماء، وربما كان قد كُتب فيها، وقدر لك أنك لم تخلق للعمل بالسياسة.

آه! أعرف جيداً أنك لم تؤمن بالقضاء والقدر، ولا بما يكتب للمرء في السماء، ولكني أنا أؤمن بها، ولديّ نقطة الضعف هذه.. لاحظ، يا سيد "كاردينال" إنك ثابت ومتصلب جداً في مبادئك.

والسياسة خلقت للمهرجين والمخادعين المتقلّبين، وللناس الذين يغيرون مبادئهم وآراءهم كل ثمانية أيام، ولم تخلق لك أنت، الذي لا تغيرها أبداً. ومن هو الذي كان يجب أن يتوصل لكل شيء؟ أنت! ومن هو الذي لم يتوصل لأي شيء؟ أنت! ففي عهد الحكم الإمبراطوري، كنت تقول لي: "بعد زوال هذه الحكم، سأصل.." وسقط الحكم الإمبراطوري، ولكنك لم تصل.. عند ذلك قلت لي: "بعد رحيل السيد "مكماهون" سيأتي دوري.." وماذا أعطوك بعد رحيل السيد "مكماهون"؟ لا شيء على الإطلاق. وتعزيت عن ذلك بقولك: "ما كان علي أن أتوقع شيئاً من هؤلاء السادة جماعة وسط اليسار، ولكن عندما يتولّى "غامبيتّا" الحكم، ويبدأ العمل.." حسناً، هاهو "غامبيتّا" قد تولى الحكم! فعلى ماذا حصلت؟ المذلّة والإهانات التي وجّهها لك موظفوه! فكل هؤلاء الناس كما ترى يظلّون متشابهين إن كان أحدهم يدعى "نابليون الثالث"، "مكماهون" أو "غامبيتّا".

فلديهم نمط العمل التقليدي، نفسه، ولهم روتين واحد، وانحياز واحد، والآراء والأحكام المسبقة نفسها. ولا يمكن أن يتفهموا أبداً عظمة طباعك. وسيلقون لك دائماً ابنتيك على رأسك. ابنتاك!.. ابنتاك!..

إيه! بعد كل شيء ربما كانوا مصيبين وعلى حق. آه! أصغ إليّ يا سيد "كاردينال" دعني أقول لك هذه المرّة كل ما يجول في خاطري من أفكار.. فأنا لديّ مشاعر وعواطف سوقية ومبتذلة، هذا صحيح.. وأفكار بورجوازية، ولكن فكرتي، هاهي أخيراً: وهي أنّ عملك

الحقيقـي طيلـة حيـاتك، ليـس السياسـة، عمـلك الحقيقـي هـو يتعـلق بابنتيك!.

وهنا توقفت عن الكلام، خائفة ممّا قلته لتوّي. ولكن السيد "كاردينال" كان قد استعاد هدوءه، وقال لي بتسامح، وهو يكاد يبتسم:

إني لا أنقم عليك يا سيدة "كاردينال" فأنت لا تستطيعين أن تدركي مرمى كلامك ولا مدلوله.. ولكن لا شيء يمكنه أن يؤثر على قدرتي أو ينال منها. وكل شيء قد تحول ضدي، حتى أسهمي النارية.. ألا تريدني حكومة "غامبيتّا"؟ هذا حسن جداً.. سأتذرّع بالصبر، وسأنتظر: فهنالك الانتخابات العامة، وسيأتي دوري لا محالة.

وبينما كان السيد "كاردينال" ينهي هكذا كلامه، أتى رقيب في الشرطة، وقال لنا:

إني آسف جداً لما يحدث، ولكني مضطر لتنظيم تقريري. وقد راجعت دليل الشرطة، الموجود لديّ، وفيه مادة ضد الشعارات التحريضية، وهي نحظرها وتعاقب عليها. وألعابكم النارية تقع تحت حكم هذه المادة القانونية، ولذلك ستقام عليكم دعوى في هذا الشأن.

"دعوى!.. لم يكن ينقصنا سوى هذا! إنها الطامّة الكبرى! ولكن بينما كنت أرفع ذراعي نحو السماء، ماذا رأيت؟ رأيت وجه السيد "كاردينال" يتهلل فرحاً، ويقول للرقيب، بكل رقة وهدوء:

أكتب تقريرك، يا صديقي أكتب تقريرك.

ثم انحنى بي جانباً، وهمس في أذني:

دعوى يا سيدة "كاردينال" دعوة سياسية!.. إنها قاعدة، ومرقى للصعود.. لقد نجوت وسيتحقق نجاحي. وسأتولّى، أنا الدفاع عن نفسي، لأنّ توكيل محامٍ في هذه الحالات هو خطأ فاحش يعرّض صاحبه للغش والانخداع. وكل أرباح الدعوى تعود للمحامي الذي يكتسب الشهرة على حساب موكله، ويجعل هذا الموكل في بعض الأحيان ينال الحدّ الأقصى من العقوبة. ويجب أن تُدفع الأموال لهؤلاء السادة، وبمبالغ كبيرة، بحيث يحصلون على كل شيء في آن واحد: الشهرة والمال.. ولكنهم لن يحصلوا على شيء هذه المرة.. سأكون أنا المحامي عن نفسي!.. وسأعمل منذ هذه الليلة في تحضير دفاعي. وهو يعمل منذ أول من أمس في تحضير دفاعه، الذي سيبدأ هكذا:

أيها السادة، لقد أردت إقامة حفلة ألعاب نارية وأسهم هذه الألعاب موجّهة ضدّ الإكليروس. ولكنّ أحد الصناعيين العديم الذمة، أراد تصريف مخزونه من الأسهم الباطلة والكاسدة عنده منذ العهد الماضي، فلم يخجل من.. الخ.الخ.

ولكنّ السيد "كاردينال" بدأ يشعر بالقلق لأنه لم يتلقَّ تبليغاً عن موعد النظر في دعواه أمام القضاء. وكلما قرع جرس الباب، يندفع ويذهب مسرعاً ليفتح الباب، هو بنفسه: "إنها هي ورقة التبليغ"!

ولكن، للأسف، لم تكن هي، إنه الجزار، إنه الخباز، وليس ورقة تبليغ موعد الدعوى.

ولذلك فإن السيد "كاردينال" أصبح الآن قلقاً جداً، متألّماً، وقبل قليل، قال لي بمرارة:

ألا يقيمون عليّ حتى مجرّد دعوى؟

صديقتك المخلصة

المحتويات

من منشورات دار علاء الدين في القصص والروايات

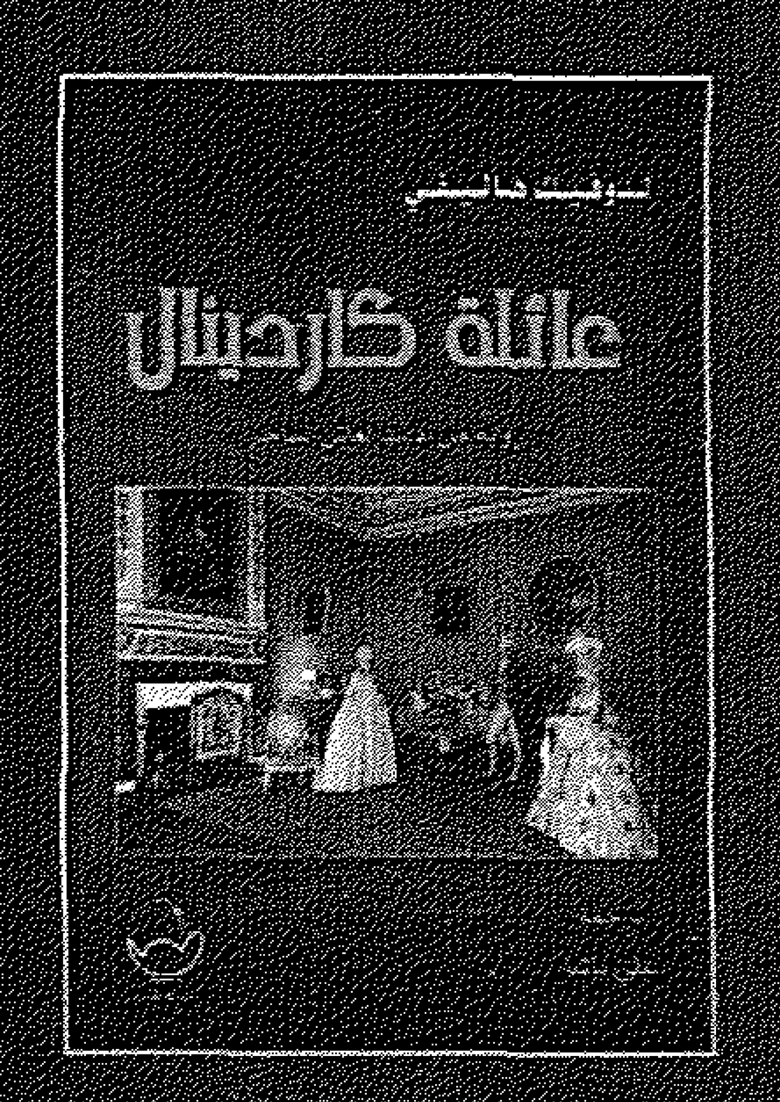
- الأقصوصة السوفيتية المعاصرة
  ....مجموعة مؤلفين
- ذكراه في القلب
  ....أنا غافارين
- النطع
  ....جينكيز إيتماتوف
- طائر الكريم
  ....وهيب سراي الدين
- أسرار المدافن المصرية
  ....أجاثا كريستي
- الركض عبر أزقة الغربة
  ....طلال شاهين
- المهندسون
  ....وهيب سراي الدين
- حياة واحدة لا تكفي
  ....سعيد أبو الحسن
- محاكمة سقراط
  ....بوري فانكين
- رفيقة سفر
  ....صالح القباني
- مذكرات امرأة
  ....روشن بدر خان
- يسلم الوطن
  ....عزيز نيسين
- من مذكرات معلمة
  ....سعاد مكارم
- خصيصاً للحمير
  ....عزيز نيسين
- موت يومي حقيقة ما
  ....جهاد عقيل
- الشمس في كفي
  ....ابتسام شاكوش
- المحطة الأخيرة
  ....ممدوح حمادة
- بؤس الشيطان
  ....بريم ستوكر
- هيجان قتل ومحاكمة لوركا
  ....جوزيه لويس دي فيلالونغا
- حكاية البغل العاشق
  ....عزيز نيسين
- التجربة الأخيرة
  ....بوليا إفانوفا
- القيد
  ....فوزات رزق
- ربما غداً
  ....صلاح دهني
- عواء الرجل الميت
  ....طلال شاهين
- لأجلك يا خروف
  ....إياد ناصر
- هالوليا
  ....عادل أبو شنب
- جلنار
  ....ممدوح حمادة
- حكايات زمن يتصاعب
  ....الحبيب الحمدوني
- خيمة تخفق تحت الشمس
  ....وهيب سراي الدين
- دف الصخر
  ....مطاع القاق
- شوام ظرفاء
  ....عادل أبو شنب
- مذكرات حبة قمح
  ....ريما فليحان
- أحلام إيفان المأساوية
  ....د. ماجد علاء الدين
- فالس الوداع
  ....ميلان كونديرا
- لا بديل
  ....عبد الناصر متعب المفوش
- قاعة الأرزاق
  ....منصور ناصر الدين
- يساري أنت أم يميني
  ....عزيز نيسين
- عائلة كاردينال
  ....لوفيك هاليفي

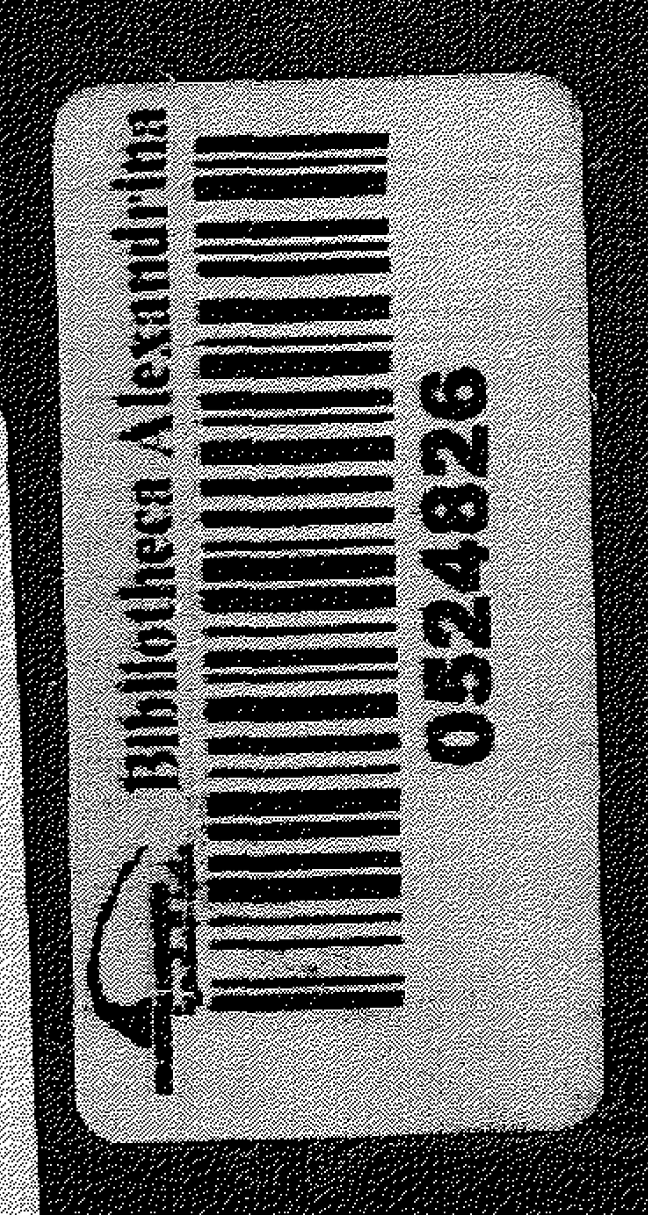

عائلة كاردينال

عائلة كاردينال

في خضم العلاقات التي تضفي ملامح محددة للشخصيات التي تتحرك في ثنايا هذه الرواية، نستطيع أن نتلمس الكثير من سمات المجتمع الباريسي بشتى طبقاته، معتمدة على عمق المفارقات واللعب على حبال التناقضات. فتعري الحقد والكراهية والغرور والتسلط حيث كانت سائدة في أخلاق طبقة الياقات البيض، بينما المعاناة والعذاب الذي ينشب أظفاره في الطبقة الدنيا التي التجأت إلى محراب القيم والمثل وتعمدت بعذوبة أواصر الود والوفاء والحميمية.

من رحم ثنائية القوة والضعف نُسجت حروف هذه الرواية، ومن الصراع بين الخير والشر استمدت روحها، وامتلكت قدرتها على إدهاش القارئ واستلابه.





Bibliotheca Alexandrina
05524826

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨ ـ هاتف ٥٦١٧٠٧١ ـ فاكس ٥٦١٣٢٤١